# كأنّها قيامة

محمد صدّيق عثمان

# كأنّها قيامة

سلسلة شهادات سورية -22- كأنّها قيامة
محمد صدّيق عثمان

الإخراج الفني: فايز علام
لوحة الغلاف: دينو أحمد علي
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى ـ 2017

**تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية**
**«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس**

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماً.

**الناشر:**
**بيت المواطن للنشر والتوزيع**
دمشق ـ الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

**التوزيع:**
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا ـ بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 750054 1 961 +
فاكس: 750053 1 961 +
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

**الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.**

## الإهداء

إلى «أبو يلماظ» و«أبو محمد» و«أبو أمجد» و«أبو آمد»
إليكم أنتم الحاضرين في الذاكرة، الغائبين في الحاضر

وإلى رودي

إلى..
أبي وأمّي
أختي آفين «أمي الثانية»
أخي عثمان
أختي زينب.

الأسماء الواردة في هذا النص هي أسماء مستعارة؛ قد غُيِّرت
خوفاً من العواقب الأمنيّة.
الشخصيات الواردة في هذا النص هي شخصيات حقيقيّة
والأحداث حقيقيّة.

## الدخول

## الخامس من حزيران 2013

كنّا أنا وراكان نلتقط صوراً بشكل سرّيّ لعناصر الأمن ولبعض الجواسيس التابعين للمخابرات السوريّة في منطقتنا، حين علمت بأنّ دوريّة تابعة للجنود السوريين استفسرت عن موقع بيتي، إلا أن أهل «الحارة» بعثروا وجهتهم.

انتهينا من التصوير ثم تفرّقنا، كلّ منّا إلى بيته، على أمل أن نلتقي في ظهيرة اليوم التالي مع عشيقاتنا في إحدى الحدائق حيث الأشجار معتادة على لقاء العشاق، والياسمين يتنصّت على هسيس القبلات. بعد مرور وقت قصير على وصولي إلى البيت وكتابتي أخباراً جديدة عن الحيّ، في الصفحة التي أديرها على موقع «فيسبوك»، طلب مني والدي جلب بعض المواد الغذائيّة للمنزل. بعد أخذ وردّ من قبلي، كما هي عادتي، ذهبت إلى «السوبر ماركت».

في طريق العودة إلى المنزل، وأنا أدندن بعض الأغاني الثوريّة التي أردّدها في المظاهرات وأسمعها عند النوم، رنّ هاتفي المحمول بموسيقا «موطني» قاطعاً استمتاعي بالغناء. أخبرني راكان أنّ «الأمن» موجود الآن في منزلهم، وأنّ أخاه الصغير، ذا الخمسة عشر ربيعاً، قيد

الاعتقال، ثم طلب مني الذهاب إلى بيتهم للتحقّق من صحة الخبر الذي وصله للتو، إذ كان هو في ندوة سياسيّة كرديّة مع والده. رفضت الذهاب وحاولت تعليل رفضي بأنّني مطلوب لدى أجهزة الأمن، وأن ذلك يشكّل خطراً على حياتي، لكن لم يكن أمامي خيار آخر، فحاولت القضاء على توتّري، وشققت طريقي إلى بيته للتحقّق من ذلك الخبر.

كانت مجاميع الأمن متكدّسة أمام منزل عائلة راكان مصطحبين معهم عدّة سيارات. ذهبت إلى راكان وأكّدت له صحة الخبر المشاع. قرّرنا الذهاب معاً إلى منزلهم لحماية أمّه وجدّته وأخته حتى ولو كلّف الأمر اعتقالنا. «التضحية وقت الضيق» ـ هذا ما كنّا عاهدنا أنفسنا عليه عندما التقيته وأصبحنا أصدقاء.

قالت لنا امرأة نعرفها ونحن في طريقنا: «لا تروحوا لعندُن، رح ياخدوكُن متل ما أخدو جوان (أحد أولادها الذي كان عضواً فعالاً في التنسيقيّة والمعتقل منذ قرابة السنة ونصف السنة ومصيره ملتفّ بالغموض) محمد صديق.. أنت بالذات لا تروح، والله رح ياخدوك ويعذّبوك».

ابتسمتُ في وجهها وتأملت فيه قليلاً، مزخرفٌ هو ببعض التجاعيد، لم أنطق حرفاً، ثم قمت بتدليك كتف راكان لمرتين. قلت له: «يا جبل ما يهزّك ريح، خلّينا نروح»!

في الطريق إلى منزلهم سحبت بطاقة الذاكرة من هاتفي ووضعتها في جيبي، تلك البطاقة التي كانت ممتلئة بصور تجمّعات الجنود وبعض الجواسيس والشبّيحة، لا أعرف كيف تذكرت ذلك.

أحياناً عندما كنت أجلس على المقعد في قاعة الامتحانات وأبدأ

حلّ الأسئلة، فجأة وعند سؤال معيّن يتوقّف دماغي عن العمل، فيأتي المعلّم ويقول: «هلّأ بيجي الوحي وبيذكّرك بالحل». وبعد لحظات قصيرة وكلمح البصر أتذكّر الحل وأبدأ بالكتابة. هو الوحي ذاته ربما الذي ذكّرني ببطاقة الذاكرة في ذلك الوقت المحرج.

دخلنا إلى المنزل فرأيناه مقلوباً رأساً على عقب. والدة راكان مع جدّته وأخته في أقصى الصالون محاطات بجنديَّين، والدموع سيل يجري على الخدود. بعد ثوان قصيرة تنبثق مجموعة من العساكر من خلفنا وأعلاهم رتبة يوجه الحديث إلينا: «هلا بالشباب، من زمان كان لازم تجو.. يالله.. أهلاً وسهلاً»!

أمر عناصره بأخذ الحاسوب المنزلي وبعض الوثائق الحزبيّة للمجلس الوطني الكردي المعارض للنظام التي وجدت في المنزل، كانت تلك وثائق والد راكان إلا أنّهم ظنّوا أنّها تخصّنا.

بدا لي مؤكداً أنّنا، أنا وراكان وأخوه زهير، في طريقنا إلى الإبحار على متن قارب يتّجه نحو المجهول في رحلة عبر الزمن أمواجها عاصفة، وليس للقارب قدرة على تحديد وجهته. وحدها الأمواج ترسم معالم الرحلة. حاولت رغماً عن ذلك إقناع والدة راكان بأنّنا عائدون بعد ساعات قليلة إلى المنزل، لكن محاولاتي باءت بالفشل. كنت أريد فقط إطفاء تلك النار التي تلهب قلوبهم، إلا أنّ الألم كان عميقاً، ونحن.. نحن سوف نصبح بعد بضع ثوانٍ قليلة مجرّد ذكريات، كلّما تذكّروها ازداد الجرح عمقاً والوجع اتساعاً.

ما إن باشروا اعتقالنا حتى بدأت الجدة المسنّة بالصراخ، تلك الجدة التي طالما تعوّدنا على الإصغاء إليها وهي تروي لنا قصص حياتها. لقد كانت دوماً تقول إنّ الزمن الماضي كان مليئاً بالرحمة

والمحبة أكثر من الحاضر. الجدة زحفت إلى أحد الجدران واستندت إليه، ثم وقفت على قدميها وتوجّهت إلى الضابط وضربته على صدره صارخة: «إنتو بلا رحمة، والله بلا رحمة»!

لم يأبه لها أحد، الجنود أخرجونا من المنزل ووضعونا في إحدى السيارات التابعة لهم حتى يوصلونا إلى نقطة تمركزهم الرئيسية «حاجز الحي».

في السيارة، تذكّرت أنّ بطاقة الذاكرة ما زالت في جيبي، تصبّب وجهي عرقاً وازدادت حرارته. كان من الصعب جدّاً أن أخرجها من جيبي نظراً لوجود جندي إلى جانبي، كان جسده ضخماً وذا وجه مستدير وسمرة داكنة، يرتدي بذلة عسكرية أنيقة وممسكاً بسلاحه «الكلاشينكوف».

الوقت يداهمني والبطاقة ما تزال في جيبي، تلك التي ستتحوّل بعد دقائق معدودات إلى لعنة في حال وصلنا إلى الحاجز. لم يعد جهازي العصبي يرسل السيالات العصبية إلى الدماغ. لم أعد أفعل شيئاً سوى النظر بشكل متقطّع إلى الجندي، ذلك الذي إن اكتشف أنّني أقوم بأيّ حركة فسوف يهدي وجهي لكمة مدوّية يزلزل بها جمجمتي.

فجأةً ودون إنذار بدأ الدماغ بإرسال أوامره لأبدأ التفكير. بدأت أتذكّر الدكتور إبراهيم الفقي، الذي أشاهد محاضراته عادةً على موقع «يوتيوب» وأقرأ كتبه عن الثقة بالنفس وتعزيزها وتنميتها، كانت له جملة تقول: «المفتاح الأساسي للنجاح هو الثقة بالنفس، والمفتاح الأساسي للثقة بالنفس هو الاستعداد».

كلّ حرف في هذه الجملة زاد من ثقتي بنفسي وبقدرتي على إخراج تلك البطاقة اللعينة من جيبي. أصابعي التي كانت تبحث عن

البطاقة لامست شيئاً ما، أخرجته بصمت، فرأيت قطعة «بزر»، فشلت في أولى محاولاتي. لم أُبدِ أيّ ملامح على وجهي، حتى إنّني لم أنظر إلى الجندي. أكملت البحث وأنا أردّد كلمات إبراهيم الفقي في ذهني، بعد ثوانٍ معدودات أخرجت تلك البطاقة من جيبي ورميتها على أرضية السيارة دون أن يلاحظها أحد. بدأت أشعر وكأنني أخرجت ورماً خبيثاً من جسدي، لم أخرجه عن طريق العلاج الإشعاعي أو الكيماوي، إنّما أخرجته عن طريق إصبعين فقط، الوسطى والسبابة.

بعد قرابة دقيقتين وصلنا إلى الحاجز الذي يقع على مدخل منطقتنا. كانت الساعة تقارب التاسعة والنصف مساءً، بدؤوا بإنزالنا من السيارة وإدخالنا إلى المكتب التابع للحاجز.

نظرت إلى السماء الهادئة وإلى ذلك القمر الذي يسحر ذهني، كنت دوماً أحدّثه عن همومي وآلامي لساعات طوال، لقد كان رفيقي منذ طفولتي، كنت أحب شكله وهو معلّق في السماء. الآن لا أستطيع أن أكلّمه لضيق الوقت. تسيل دمعة من عيني اليسرى بعد كفاح حرّرتْ به نفسها وأرغمتني على إطلاق سراحها.

أدخلونا المكتب. طلب مني الضابط هويتي الشخصيّة بعد أن أخذ هوية راكان وورقة تثبت أن زهير قد قدّم طلب الحصول على الهويّة. لم أكن أحمل هويتي، لذلك طلب مني الضابط رقم هاتفنا المنزلي كي يتصل بوالدي ليجلبها إلى المكتب. أُمهل والدي، بعد أن تلقّى سيلاً من السباب، نصف ساعة لإحضار الهويّة.

صادروا هواتفنا وسبعة آلاف ليرة من جيب زهير، كان يحملها بغية تسليمها لوالدته بعد أن أغلق «الدكان» مصطحباً «الأمن» إلى بيتهم.

لقد قاموا بتعصيب عيوننا بأقمشة كانت تفوح منها رائحة كريهة

جدّاً، كما ربطوا أيادينا من الخلف لنصبح مسلوبي الإرادة، وبدؤوا التعذيب عن طريق صعقات كهربائية على الجسد، بشكل خاص الرقبة، وعن طريق اللكمات على رؤوسنا وظهورنا من الخلف. شعرت في تلك اللحظات أنّ أمواج البحر بدأت تصبح هائجة لترتطم بقاربنا الذي بدأ بالترنّح، ذلك القارب الذي يقودنا في رحلة عبر الزمن.

بعد قليل سمعت صوت والدي بالرغم من صرخاتنا التي كانت تصل إلى حدود السماء. أخذ منه أحد الجنود هويتي من أمام باب المكتب، وقال له: «شو؟؟ ابنك الصغير اللي قد فرخ الصوص بدُّه يسقّط النظام؟! هاد الصغير عم يشتغل ضد الدولة وعم يطالب بإعدام سيادة الدكتور بشار؟! أي والله لنربّيه هو ورفقاتو!».

أبعده عن المكتب دون أن يعطيه فرصة للدفاع عني، ثم دخل إلينا وسلّم الهوية للضابط. حاول هذا الضابط الحصول على بعض المعلومات حول أشخاص آخرين في الحيّ يعملون ضد النظام. نحن أصررنا على عدم معرفتنا لأيّة معلومات عنهم. اتصل الضابط بأحد الأشخاص وطلب أن يأخذونا إلى أحد فروع الأمن.

ضربونا حتى وصلت السيارة، وقام بعض الجنود بإدخالنا إليها وعيوننا معصوبة وأيادينا مربوطة.

بعد قرابة عشر دقائق وصلنا إلى مكان لم نعد نسمع فيه ضجيج المدينة أو أصوات الناس، عندئذٍ تأكدت أنّنا دخلنا منطقة أمنيّة، خصوصاً أنّني شعرت بأنّنا تجاوزنا حاجزاً أمنياً.

وصلنا إلى نقطة أخرى حيث جرى تسليمنا إلى أشخاص آخرين، فقاموا بإدخالنا إلى غرفة مكيّفة، كنت أسمع هناك أصوات رنين الهواتف الأرضيّة. أُمِرنا بالجلوس على رُكبنا ورؤوسنا متّكئة إلى الجدار. لم

أكن أرى ما يجري حولنا لكنني بصوت هامس قلت لزهير، الذي كان بجانبي، أن يخبر أخاه ألّا يعترف بشيء، سمعني أحد العناصر وأمرني بالسكوت بعد أن شتمني.

بعد قرابة خمس دقائق من المكوث هناك أتت سيارة ووضعونا فيها. سمعت أحد العناصر يقول لزميله: «هاد الشخص كان عم يحكي مع رفقاته (في إشارة إليّ)، قوموا بواجب الضيافة».

عند قوله ذلك، أدركت أنّ أمواج البحر بعد قليل ستزداد علواً وأن قاربنا سيزداد ترنّحاً، وكم تمنّيت حينذاك أن ينقلب القارب وأن أغرق في عرض هذا البحر اللعين.

دقائق طويلة مرّت ووصلنا إلى مكان، كانت أصوات عواء الكلاب فيه تخترق صمت الليل، أدخلونا إلى غرفة وأُمرنا أن نبقى واقفين على أقدامنا وظهورنا متّجهة إلى فضاء الغرفة. لم يسمح لنا بنطق كلمة واحدة. نحن فقط نطبّق الأوامر.

كان يأتي من حين إلى آخر شخص يسلّي نفسه بنا قليلاً عن طريق ضربنا عدّة لكمات أو بشدّ السوالف، كنّا نقفز في أماكننا من شدّة الوجع عند هذه الحركة.

بعد تقديري لمرور ساعة ونصف على وقوفنا، بدأ الهدوء يسيطر على الأمور، لم يبقَ في الغرفة سوى شخص واحد دخل منذ قليل. لم يضربنا قطّ، بل أمرنا بالجلوس، وكان ذا صوت هادئ يتحدث إلينا بشكل مهذّب وينصحنا بأن نعترف بكلّ ما اقترفته أيدينا ضد الدولة.

فكّرت لثوانٍ قصيرة عن كيفية استغلال طيبة هذا الشخص، ففكّرت أن أقوم بالغناء. أجل، الغناء. الكثير من الناس أحبّوا صوتي، وكم من الشبان قد بكوا أثناء غنائي! وأنا أؤمن بأنّ لكلّ شخص صوتاً فريداً مثل

بصماته، وإن كان الصوت جميلاً، فإنّ صاحبه يستطيع السيطرة على قلوب الآخرين من حوله.

لذلك بدأت أحاوره وأعرض عليه فكرة الغناء، كنت أريد بذلك كسب عواطفه ظنّاً مني أنّه السجّان الذي سيعذّبنا بعد قدوم المحقق، لكنه رفض كلّ عروضي: «أنت وين مفكّرلي حالك؟.. لك أنت بفرع أمني وموقوف، أنت مو بالملهى أو بشي عرس حتى تغني، نقطة انتهى». لم أستسلم لذلك الرفض، بل حاولت مرة أخرى وخصوصاً بعد أن دخل شخص آخر.

سأل الوافد الجديد: «شو بدّو هاد؟!». «لك صرلو ساعة عم يقول بدّو يغنّيلي وأنا عم قول أنت بالفرع وموقوف، بس ما عم يوقف» أجاب زميله. «أي خلّيه يغنّي، بربّي أنا فرحان، لك حرّرنا القصير وعقبال كل سوريا». «لا.. لا خلص. نقطة انتهى».

لم أتفوّه بعدئذٍ بكلمة. فكّرت بمدينة القصير، تلك المدينة التي خاضت فيها القوات المعارضة أشرس المعارك ضد النظام الذي هاجم المدينة مع كتائب من حزب الله اللبناني وميليشيات عراقيّة وإيرانيّة.

قبل أن نُعتقل بساعات سقطت القصير بيد النظام والميليشيات التابعة له، حينئذٍ قمت بتغيير صورتي الشخصيّة على موقع «فيسبوك» إلى صورة سوداء داكنة دلالة على الحزن الذي أصابني بسقوطها، لم أكن أعرف أنّ ذلك السواد سيدلّ بعد ساعات قصيرة على حياتي الجديدة التي تنذر بموتٍ وشيك.

فجأة قال الشخص ذو الصوت الهادئ: «ليكو المحقّق إجا». لم أبالِ بتلك الكلمات التي خرجت من فيه ظناً مني بأنّه يحاول إخافتنا قليلاً.

«قيام يا كلاب أنت ويّاه ولك» كان صوت المحقق غريباً جداً، لم يكن يشبه أيّ صوت أعرفه وكأنّ حباله الصوتيّة ليست بشريّة، صوته كان كصوت الوحوش الجائعة المتعطشة للدماء. لم أكن أستطيع رؤيته فقمت برسم هيئة له في مخيلتي، رجل ضخم ذو عين واحدة ووجه شديد السواد وفي يده سكين حادة، كان يشبه شخصيّة شاهدتها في أحد أفلام الرعب. كانت طريقته في الكلام تبعث خوفاً يخترق قلوبنا.

وقفنا مباشرة لنقول أسماءنا بعد أن أمرنا بذلك وهو يضرب بإحدى قبضتيه على أكتافنا، ثم بدأ الاستجواب من عند زهير: «والله يا سيدي مو مساوي شي، أنا انكمشت يمكن عن طريق الخطأ».

لم يضربه المحقق. بدأ بسؤالنا، أنا وراكان، إلا أنّنا كررنا جواب زهير. نادى المحقق بامتعاضٍ أحد السجّانين من الخارج ليبدأ بمعاقبتنا، بدأت الأمواج، التي تتراقص في دماغي، بالهيجان مرة أخرى.

قدِم السجان وألقى التحيّة، حينئذٍ أدركت أنّ الشخص ذا الصوت الهادئ لم يكن السجّان، وأن حظّنا ازداد سوءاً، سألني المحقق بصوته الخشن: «لك أنت بتعرف وين أنت ورفقاتك هلّق؟ ومصرّين ما تعترفوا؟» سألني. «أي سيدي، نحن بالمُعتقل» أجبت.

ضحك ضحكة مستهينة وبدأ يصفق محدثاً بذلك صوتاً يشبه صوت جناحي الطائر عندما يصفق بهما.

«برافووو، برافووو، الولد عم يحكي مصطلحات ثوريّة كمان، ولسّا بيقول نحنا مو مساويين شي وما دخلنا بالسياسة، لك والله لتندموا عالساعة اللي ولدتو فيها»، قال.

أمرنا المحقق بالانبطاح على الأرض ثم بدأ الضرب. بدؤوا هذه

المرة براكان. صرخاته كانت قويّة متلاحقة تكاد تصل إلى السماء من شدّتها، ضربوه حتى فقد الوعي.

أتت تلك الغيمة السوداء فوق زهير وبدأت أجواء الرعب من جديد، بعد أقل من دقيقتين فقد هو الآخر وعيه أيضاً.

كنت أراقب تلك الأجواء الكابوسيّة من خلال أصوات صرخات رفاقي، كل ثانية تمرّ كمثل سنة ضوئيّة. حان دوري الآن، يأتي السجّان ويركلني بحذائه العسكري، أخذت نفساً عميقاً وحاولت أن أخلق جواً مزيفاً لنفسي. حاولت الهروب من الواقع وتخيّل وجودي مع حبيبتي على إحدى ضفاف نهر بردى، ذلك النهر الذي تغنّى به كثير من الشعراء السوريين والعرب في أشعارهم، فتقول غادة السمان مثلاً:

«ومهما اغتسلت في مياه التايمز والدانوب والسين والميسيسيبي والراين، لا تزال مياه بردى تبلّلني وحدها ولا تجفّ عنّي».

و ينشد جورج صيدح في قصيدته «بردى»:

«حلمتُ أنّي قريبٌ منكَ يا بردى  أبلّ قلبي كما بلّ الهشيمَ ندى»

تخيّلت أنّني أسرد لِفتاتي الحكايات والقصص لجعلها تضحك، إلا أنّ ضربة من الكرباج خطفتني من هناك وأعادتني إلى الأمر الواقع. بدأت أصرخ، عَلّ الصراخ يخفّف من وجعي. كلّ صرخة كانت تشعرني بأنّ قليلاً من النار، التي تُلهب جسدي، قد خمد.

من شدّة الضرب وألمه باشرَ عقلي بإرسال أوامر خارجة عن إرادتي، فبدأ جسمي وبشكل جنوني بالتقلّب من مكان إلى آخر، لقد كانت الضربات تزداد عنفاً تاركة خلفها آلاماً عميقة، تلك التي ما كادت تهدأ حتى تأتي ضربة أخرى وتشعل نار الألم من جديد. بدأت الضربات تنهال على رأسي أيضاً من شدة حركاتي الجنونيّة لينتهي بي الأمر، كما صاحبيّ، مغميّاً عليّ.

لم أدرك طول المدة التي استغرقتها غائباً عن الوعي إلا أنّني أذكر بأنّني استعدته من جديد، بعد أن قام أحدهم بسكب الماء عليّ.

شعرت بحرارة مرتفعة في كامل بقاع جسدي وأصبحت في حالة من الارتخاء التام. حاولت أن أتحرّك قليلاً إلا أنّني لم أستطع وكأنّ جسدي قد انفصل عن رأسي، لم أعد أشعر بأنّني ما زلت أملكه.

لم يضربونا بعد ذلك، أخذوا حصّة من الراحة وأحدهم باشر بالتدخين. كنت أسترق السمع وأشمّ الروائح من حولي. عرفت من خلال رائحة الدخان أنّ السيجارة هي سيجارة «حمرا طويلة» التي أكرهها لرائحتها العفنة ولأنّها تصيبني بالغثيان، حاولت السيطرة على نفسي بالهروب من الواقع إلى ضفة بردى مع حبيبتي.

بعد وقت وجيز صرخ المحقق من جديد وأمر بتعذيبنا. قام شخصان برفع راكان وزهير ووضعوا تحت كلّ واحد منهما جرّة غاز، ثمّ سُحبت الجرّتان من تحت أقدامهما ليبقيَا معلّقين في الهواء والضرب ينهال عليهما.

بعد عشر دقائق من الصرخات والضربات، امتعض المحقّق وأمر بإنزال راكان وأن يُبقى أخوه الصغير معلّقاً. قدّم المحقق عرضاً لراكان: سوف يتوقف تعذيب زهير في حال اعترافه بكلّ شيء. «يا سيدي والله العظيم نحنا مو مساويين شي!» رفض راكان. «خلاص متل ما بدّك، هلّأ هيك أنت حكمت على أخوك بالضرب حتى الموت» قال له المحقق.

ثم أمر المحقق السجان بتعذيب زهير من جديد. بعد قليل صرخ راكان: «سيدي، سيدي خلاص مشان الله، والله بدّي احكي كلّ شي». توقّف تعذيب زهير. «يالله يا راكان.. احكي بكل هدوء ورواق عن كلّ شي، مشان نزّل أخوك» طلب منه المحقق.

بدأ راكان يعترف: حكى عن نشاطه معي، وأقرّ بأنّني كنت عضواً في تنسيقيّة حيّنا، وبأنّه كان يساعدني أحياناً في توزيع المعونات على العائلات الهاربة من مناطق الصراع، وعن كيفيّة تنظيم المظاهرات المناوئة للنظام السوري وغيرها من النشاطات ضد النظام.

بدأت ملامح البهجة ترتسم على وجه المحقق، على الرغم من أنني لم أكن أرى وجهه، إلا أنّني أحسست بتلك البهجة عندما أمر بإنزال زهير من «الشبح» (طريقة التعذيب) بصوت هادئ. بعد لحظات تقدم نحوي وأمر السجّان بتعذيبي، بعد أن قال لي: «على أساس إنّك بريء يا أخو الشرموطة ومو مساوي شي، والله ح خلّيك تنسى حليب أمّك!».

رغم شدة ضربات السجّان لي إلا أن ذلك لم يشفِ غليل المحقق الذي ما لبث أن أخذ الكرباج من يدي السجّان، وبدأ ضربي بنفسه واضعاً رأسي بين قدميه.

كانت كلّ ضربة منه تعادل قوة عشر ضربات من التي كان يضربها السجّان، لقد كانت تنهال سريعة كالبرق، بدأت أصرخ وأصرخ وأصرخ إلا أنّه لم يتوقف عن الضرب ولو قليلاً.

قرّرت أن أتظاهر بأنّني فاقدُ الوعي، لا أعرف كيف خطرت لي هذه الفكرة، توقفت عن الصراخ وأرخيت جسدي على الأرض، تحمّلت عدّة ضربات دون حركة ودون صراخ. أيقن المحقق أنّني فقدت الوعي. تركني قليلاً ثم أمر أحد العناصر بسكب الماء عليّ.

في هذا الوقت القصير الذي لم يتعدّ ثلاثين ثانية التقطت بعضاً من النفَس، وارتحت قليلاً كما لو أنّني نمتُ لثلاثين يوماً. سُكب الماء عليّ فتظاهرت باستعادة الوعي، فأمر المحقق بتعليقي كما عُلِّق راكان

وزهير قبْلي. فكّوا القماش الملتفّ حول يدي، ثم وضعوني على جرة غاز وربطوا يديّ مرة ثانية، لكن بطريقة مختلفة هذه المرة، اليسرى بحبل واليمنى بآخر، ثم سحبوا الجرّة من تحت أقدامي.

بقيت أقاوم الألم، ألم البقاء معلّقاً في السقف. لم أستطع فعل ذلك لمدة طويلة فانهار جسدي. ضربني المحقق، الذي امتلأ قلبه حقداً وكراهية نحوي، بالكرباج قليلاً، ثم تركني ليبدأ التحقيق: «احكيلي لشوف، أنت شو عم تشوف قدامك هلّأ يا حيوان؟». «ملك الموت سيدي، ليكو قدامي» أجبته. «أي خلّيك متهنّي بشوفتو، وسلّملي عليه وهو بيعرفني ع كل حال، لأنّو أنا عم ببعتلو كتير ناس».

بعد دقائق قصيرة من هذه المحادثة، أخبرته بأنّني سأعترف بكلّ شيء لكن شرط أن يُنزلوني. رفض ذلك وازداد غضباً بسبب شروطي المسبقة، ثم جاء وضربني مرة أخرى.

اعترفت وأنا خاضع له. أخبرته بما قاله راكان مع زيادة تفاصيل بسيطة.

بعد اعترافي أنزلوني، وبقينا على الأرض، أنا وأصدقائي، لمدة بسيطة حيث كانت أجسادنا ترتعش من الماء البارد الذي سُكب علينا، ومن الدم وحرارة أجسادنا المرتفعة بسبب الضرب.

ربطوا أيادينا من الخلف مرة أخرى، ثم أتت سيارة لكي تأخذنا إلى مكان آخر، حيث تقبع مهاجعُ تحتوي «إرهابيّين» مثلنا.

يأمر المحقق عدة أشخاص بوضعنا في السيارة، ويختم لقاءه معنا بقوله: «لا تفكّروا إنّو كان هاد هو الغدا ها، هاد لسّا مو شي، هاد فيكُن تقولوا مقبّلات منقدّمها للإرهابيين بس يشرّفوا لعندنا».

في تلك السيارة، كنت أتحسّر على عدم رؤيتي للبدر لأسرد له

همومي. بعد بضع دقائق وصلنا إلى حاجز آخر، حيث فُتحت بوابة لتدخل منها السيارة.

أحد الأشخاص يفتح باب السيارة ويقوم بجرّنا إلى خارجها، ثم يبدأ الضرب لعدة دقائق باللكمات على البطن والرأس والظهر، بعد أن اصطففنا واحداً خلف الآخر.

راكان، المتشبّث بعصا كان قد أمدّه بها أحد العناصر ليتبع خطواته حتى نصل إلى عتبة المهجع الذي سنمكث فيه، كان في مقدمتنا، لذلك كان على زهير أن يتمسّك بكنزة راكان وأنا بقميص زهير. بعد قرابة دقيقة أو أقل يقرع ذلك العنصر الباب آمراً قائد المهجع بأن يوعز للرعايا أن يجلسوا مقرفصين ناظرين إلى الأرض دون أن ينظروا إلى الوراء.

بعد أن أُدخلنا، صار جسدي الذي يرتعش من البرد يشعر بالدفء قليلاً، كأنّني كنت في خلاء يسوده جوّ عاصف ومثلج، ثم أتاني الربيع هازماً الشتاء فارضاً نفسه بثوبه الأخضر وبألحان العصافير وبشمسه المطلة بأشعّتها الزاهية.

فكّ قائد المهجع عقد الأقمشة الملتفّة حول أيادينا من الخلف تاركاً العيون معصوبة، وذلك حسب الأوامر، أمرنا ذلك الشخص، الذي قادنا إلى المهجع، بخلع ملابسنا. خلعت كلّ شيء ولم تبقَ سوى ثيابي الداخليّة، سألته إن كان عليّ خلعه أيضاً، فصرخ: «أي اشلحو لهاد كمان يا أخو الشرموطة!». خلعته أيضاً، لأصبح عاري الجسد وعاري الكرامة.

نادى السجّان عدداً من زملائه لمشاركته حفلة الاستهزاء بنا، وبعد مدّة أُغلق الباب وذهبوا.

أتى قائد المهجع وأزاح الأقمشة عن عيوننا، لبسنا ثيابنا من جديد. التفّ باقي المعتقلين حولنا. «الداخل مفقود والخارج مولود، إن شاء الله تولدوا من جديد و ترجعوا لأهاليكُن» قالها أحدهم.

لم أُنصت لمواساة الكثير من المعتقلين، عاينت الغرفة التي كانت لا تسع لأكثر من ثلاثين شخصاً، إلا أنّ عدد البشر الموجودين فيها أكثر بكثير من ذلك.

طلب قائد المهجع من المعتقلين عدم التكلم إلينا لمدة يوم، وأن يذهب كلٌّ منهم إلى مكانه ليقوم هو بواجبه في إيجاد أماكن تمكث فيها أجسامنا، بعد قرابة عشر دقائق حططنا رحالنا قرب حائط المرحاض. كان مكان عيشنا الجديد لا يتجاوز ثلاث بلاطات عرضاً وقرابة أربع بلاطات طولاً. لقد قمنا بـ«التسييف»، أي الاستلقاء على الجانب وليس على البطن أو الظهر، بسبب ضيق المساحة.

يصيح قائد المهجع طالباً من الجميع النوم لتأخّر الوقت، أنهض من مكاني وأذهب إليه بشكل حذر كي لا أدوس على جسد أحدهم، وأطلب منه السماح لي بالذهاب إلى المرحاض.

في الحقيقة أريد أن أذهب إلى المرحاض لأتعرف على هيئة المهجع وليس لقضاء حاجتي. دخلت إلى المرحاض الذي كان بابه صدئاً وأرضه متّسخة، كان يفتقد الكثير من الأشياء حتى نسمّيه «تواليتاً». جُلتُ بنظري في المهجع بشكل سرّيّ لبضع ثوانٍ، وكان على الشكل التالي:

المكان لا يتجاوز ثلاثة أمتار عرضاً وسبعة أمتار طولاً أو أقل بقليل، يضمُّ جداراً لا يرتفع أكثر من مترين، وخلفه مرحاض صغير وزاوية صغيرة يسمّيها البعض «الحمّام»، لا شيء في تلك الزاوية

سوى أسطوانة معلّقة في الجدار. بجانب التواليت توجد مغسلة من الحجر القديم، وتحت المغسلة ثقوب المجاري التي تفوح منها رائحة كريهة، على أحد جدران المهجع في الأعلى توجد نافذة كبيرة بطول يقارب مترين وعرض ربع متر تقريباً، كانت مشبّكة ومصانة بقطع حديد صدئ، وكان يوجد فيها ثقب صغير جداً. باب المهجع حديديّ تتوسطه نافذة حديدية صغيرة محكمة الإغلاق بقفل من الخارج.

السرير هو الأرض المغطّاة بالبلاط، والغطاء هو السقف الذي يحوي في منتصفه مصباحاً صغيراً يقطع رأس الظلام بشعاعه الأبيض، والوسادة هي اليدان أو الحذاء. لقد كان نظام النوم متنوعاً، فمنهم من كان ينام وقدماه عند فم الآخر ومنهم من كانت أقدامهم على بطون الآخرين.

بعد أن تعرّفت على المهجع عدت إلى مكاني وحاولت النوم مراراً وتكراراً. حاولت أن أنسى كدمات جسدي والألم الذي يتجوّل في أزقّته، لكنني لم أنجح في ذلك. ليس من السهل عليّ أن أنام إلا على بطني.

راكان وزهير غرقا في النوم. أنا وضعت يديَّ تحت رأسي وأغلقت العينين لأبحر في عالمي الخاص، فأمواج رحلتنا بدأت في العودة إلى حركتها الطبيعية.

منذ طفولتي المبكرة وأنا أملك عالمَين: عالم، لم أختر القدوم إليه وهو مليء بالكوارث والدكتاتوريين والظلم والقهر، أعيشه، وعالم آخر خلقته بإرادتي في مخيلتي الشاسعة، هناك حيث أكسر القيود وأقتل المستحيل بسيف تصوّري، فأتحكّم بالأحداث وأقوم بنقش تفاصيلها في مخيّلتي.

هربت من الواقع تاركاً خلفي جسدي المنهك وحلّقت إلى منزلنا. والدتي ووالدي يائسَين من هذه الحياة التي خطفتني منهم في مشهد غير متوقع، لم تعجبني تلك الوجوه التي استقرّ فيها الحزن. ولأنّني أتحكّم بهذا العالم فقد غيّرت مشهدهم البائس الحزين بمشهد مليء بالفرح. لقد أخذتهم إلى حفلة زفافنا، أنا وحبيبتي ياسمين، كنّا جميعاً، حتى زهير وراكان، نرقص بسعادة غامرة.

بعد قرابة ساعتين في عالمي، قامت قطرات من الماء، تدحرجت من على يدَي مُعتقل لتسقط على وجهي، بجَرّي إلى الواقع المفروض، نهضت ورأيت بعض الناس يصلّون، حينئذٍ عرفت أن الوقت فجر.

لقد كانوا يتوضّؤون بشكل سريع، كلّ شخص كان يصلّي بمفرده: يقف الشخص المجاور له، وبعد انتهائه يقف مَن صلّى ليصلّي جاره أيضاً، كلّ ذلك بسبب المهجع الضيق، كان عدد المعتقلين خمسة وستّين شخصاً.

دقائق ويأتي قائد المهجع ويهمس في أذني اليمنى: «إذا بدّك تصلّي روح صلّي، بس خلّي وضوءك خفيف». أومأت له بحاجبيّ بأنني لا أريد الصلاة، راكان وزهير رفضا ذلك أيضاً بعد أن سألهما عما إذا كانا يريدان الصلاة.

لم أفهم قصده حين قال «بس خلّي وضوءك خفيف»، فاستفسرت منه عن ذلك. هو لا يريد التعرض للمساءلة عن الماء من قبل الضباط، فإذا لاحظ العساكر أنّ خزان الماء تَقلُّ نسبة المياه منه بشكل كبير، فسوف تكون هنالك نتائج وخيمة عليه بشكل خاص وعلى جميع المعتقلين بشكل عام، خصوصاً إن عرفوا بصلاة المعتقلين، لأنّ الصلاة ممنوعة فالمُصلّي هو سلفيّ بالضرورة، أو على الأقل منتمٍ إلى جماعة إسلاميّة متطرفة.

على الرغم من أنّ الوجوه المقيمة معي بين هذه الجدران الأربعة في معظمها وجوه ذات لحىً، إلا أنّها لا تدلّ على «إسلامهم» إنّما تدل على تاريخ الاعتقال، كثيرٌ منهم كان ذا شعر كثيف طويل ولحية طويلة تغطي معظم الوجه، فهم هنا تحت أنقاض الزمن منذ وقت طويل.

حاولت النوم مرات عدّة، لكنني لم أفلح في ذلك، وبقيت مستيقظاً إلى أن أشرقت شمس الصباح. كان المعتقلون يعرفون أنّ الشمس قد أشرقت من خلال ذلك الثقب، إذ تدخل من خلاله بقعة من الشمس وتلقي بنفسها على أحد جدران المهجع، ومن خلال ذلك الثقب كانوا أيضاً يرون السماء ويصلّون الفجر بعد أن يلاحظوا مجيء أول بياض الصبح.

في الصباح يُطرَق باب المهجع. نلجأ إلى الحركة الروتينيّة: نجلس مقرفصين ووجوهنا إلى الحائط. يُفتح الباب.

دخل مهجعنا عدد من العناصر، أُمرونا بالوقوف بعضنا خلف بعض، وبخلع ثيابنا باستثناء الثياب الداخليّة، كانوا ملثّمين ويحملون الكبلات الكهربائيّة والكرابيج، رأيتُ ذلك بطرف عيني بعد تلصّص لم يتجاوز ثانية واحدة. الآن بدأ الضرب وباشر المعتقلون بالتدافع، فتهاوت أجسادنا ورحنا نسقط بعضنا فوق بعض. حاولت استيعاب السبب الذي جعلهم يشتعلون غضباً، لكن الضربات والصرخات كانت تمنعني من التفكير.

فجأة سُمع صوت أحد المعتقلين وهو يقول: «مشان الله لا عد تضربونا، كرمى لله، والله نحن كمان سوريين، كرمى للّه بيكفّي». الكلّ توقف عن ضربنا وتوجّهوا إليه وانهالوا عليه بالضرب وهم يشتمونه ويشتمون ربّه، أحدهم قال له: «يا سلفي، يا إخواني والله لنيك إختك، الله ما بنعرفو نحن».

بعد قليل قال هذا المعتقل: «كرمى لسيادة الرئيس بشار حافظ الأسد بيكفّي، والله تعبت، ما عاد فيني». أثنى عليه أحدهم لاستنجاده ببشار الأسد وتركوه. ختموا الضرب، الذي استمرّ قرابة ربع ساعة، بحرماننا من الطعام ليومين، ثم رحلوا.

بعد رحيلهم طلب منّا قائد المهجع أن نتكاتف جميعاً، وأن نقوم بتنظيف الأرض الملطخة بالدماء الممزوجة بعرقنا، سكبنا المياه على الأرضيّة بأيادينا، وتبرّع آخرون بقمصانهم لنمسح بها البلاط، خلال أقل من عشر دقائق أنهينا المهمة. بعد ذلك عدنا جميعاً إلى أماكننا وبدأ النوم يثقل جفوني، فاستسلمت له وللظروف التي لا بدّ لي من التعايش والتأقلم معها. أرحت رأسي فوق يديَّ لأنام على جنبي مرغماً على ذلك.

استيقظت حين ضربني راكان بمرفقه، فقد نادوا على الرقمين 26، 27 للتحقيق معهم. أتمّ قائد المهجع مهمّته بربط العيون من الأمام واليدين من الخلف بقطعٍ من القماش، ومن ثمّ ساقوهما إلى التحقيق. استحوذ عليّ الفضول وأصبحت أتعطّش لمعرفة سبب مناداتهم بالأرقام وليس بالأسماء.

بصوت هادئ ومنخفض طلب قائد المهجع من الجميع أن ندعو لهما بالعودة وتخفيف العذاب. فقام الجميع بالدعاء بصوت خافت ونحن نتبادل النظرات في السكون. بعد أوانٍ ليس بطويل صاحا صياحاً شديداً ليخترق صراخهم الصمت الذي كان يملأ مهجعنا. لم أعد أريد النوم وفي محيطي أناس يتألمون وذنبهم الوحيد هو المطالبة بالحريّة، تلك الحريّة التي تشكّل زلزالاً يهزّ عروش الحكام المسلّطين أنفسهم على الشعوب. في كلّ مرة كنت أسمع فيها صرخات المعتقلين وهم

يُعذَّبون، كان يزداد إيماني بأنّ هذا الشعب الذي يملك إرادة لا تُقتل سوف يحرّر الحريّة يوماً ما من مخالب الأسد ونظامه.

تذكّرت أبياتاً من قصيدة أبو القاسم الشابي:

إذا الشـعبُ يوماً أرادَ الحياة فلا بـدّ أن يسـتجيبَ القدَرْ
ولا بـدّ للّيـل أن ينـجـلي ولا بـدّ للـقـيـد أن يـنكسرْ
ومَن لم يعانقْه شوقُ الحياة تـبـخّر في جـوّها وانـدثـرْ

أوّلَ مرة سمعت هذه القصيدة كنت في صفّي المدرسي التاسع. كانت المعلمة تقوم بترتيل الأبيات من كتاب اللغة العربيّة وأنا أحدّق في صورة حافظ الأسد المعلّقة فوق السبّورة الخضراء الداكنة، رغبت حينذاك بتكسير صورته في الصف أمام الجميع. مضت الأيام ولم أمزّق تلك الصورة وأجعل من زجاج إطارها قطعاً متناثرة.

أعرف أنّ الصورة ما زالت متشبّثة بذلك الجدار مثلما تشبّث حافظ الأسد بالكرسي في السلطة، ومثلما في الحاضر يتمسّك ابنه، لكنني متأكد أنّ القدر سيستجيب يوماً ما لمطالبنا بإسقاط الأسد ونظامه، عندئذٍ سأحقّق تلك الأمنيّة.

لأنّ قاربنا لا يهتزّ ولا يتمايل الآن والأمواج في حركة عادية، أقوم بجلب سنارة وأرميها في البحر، بحر الأفكار، فإذا كنتُ محظوظاً سوف تقوم فكرة ساحرة بأكل الطعم، فأصطادها وأحرّر بها أسر هذين المعتقلين، وإن لم أكن مرزوقاً فسوف أقود نفسي إلى عالمي الخاص وأحوم فيه لأفكّ قيودهما.

بعد دقائق على وجود الطعم في البحر تتحرّك السنّارة في يدي، سحبتها نحوي، جذبتها إليّ. آه.. آه على حظٍّ يكتحل بالسواد ويرى فيه جمالاً. فكرتُ في التأمل وعبادة الأمل وليأتِ الخلاص ويدمّر

مملكة الظلم، الفكرة المصطادة تدعوني إلى الصلاة لله على أمل أن ينقذ أولئك الاثنين.

أذهب لأتوضّأ، أصلّي على الرغم من ضعف إيماني، أحاول التركيز على الصلاة، الكلمات تتدافع في داخلي، بعضها تشكّل جملاً تأمرني بالصلاة بخشوع وإيمان، وأخرى تبني جملاً تتبنى فكراً إلحاديّاً وتفيدني بأنّ الله لن يخلّصهما وأنّ الإله أسطورة مبتكرة.

أتممت الصلاة ولم أعرف ماذا كنت أردد، لكن على الأقل عرفت بأنّني قد توجهت بدعائي إلى إله ما، عساه يخلص الرقمين 26 و27 من عذابهما.

ألقيت جسدي على الأرض وأخذنا نتحدث عن تلك الليلة التي مررنا بها. ضرب، كرباج، صعقات كهربائيّة، البقاء معلقاً، شتائم، صرخات، إغماء، أنين. كلّ هذه الأحداث شكّلت خيوط قصتنا التي بدأت في هذه الليلة.

«اليوم شفت بمنامي واحد، كان عم يقلّي إنّه بعد 16 يوم رح نطلع من هون و نكون ببيوتنا»، قال زهير مقاطعاً حديثنا. أتمنى ألا يكون حلمه كأحلامي، كلّ شيء يجري في المسار المعاكس.

«على كل حال، إن أُطلق سراحنا بعد مضيّ ستة عشر يوماً فسنكون فرحين، ولكن تلك الأيام ستساوي ستّ عشرة سنة»، قال راكان.

بعد مرور ساعة ونصف الساعة تقديرياً، نُقر على الباب لنقوم بالحركة الروتينيّة، ثوانٍ معدودة انتهت بسقوط جسدين على أرضيّة المهجع بعد رفسهما، أطبق الجندي الباب ورحل. استدرنا جميعاً وأسرعنا لنزدحم حولهما، إنّهما الرقمان 26 و27. هرع رئيس المهجع إليهما وفكّ الأقمشة عن اليدين والعيون، لقد كان منظرهما مأساويّاً،

منهكَي القوى، لم تعد صرخاتهما تخرج من حلقيهما وكأنّ رصيدهما من الصرخات قد أُمتُصّ. أصواتهما مصابة بغلظٍ من كثرة الصياح، قمصانهما ممزقة وعليها بقع من الدماء الحمراء الداكنة.

قام بعض الأشخاص بتجريدهما من ثيابهما المختلطة بدمائهما، فظهرت على جسدَيهما لوحات مرسومة بضربات الكرباج والصعقات الكهربائيّة، موزّعة فيهما جروح ممتلئة بالدماء، ألوانها الرئيسيّة الأحمر الداكن والأزرق، وخلفيّتها سمار الجلد مع توزيع بسيط للشعر الأسود.

بادر عدّة معتقلين بجرّهما إلى إحدى الزوايا، ثم أتى رئيس المهجع بالقليل من المُعقّم ليطهّر تلك الجروح. بعد بضع دقائق عاد الجميع إلى أماكنهم وهم يردّدون في عقولهم سؤالاً واحداً: «من التالي يا ترى؟! من الذي سوف يكون على موعد مع الجحيم بعد قليل؟!».

سمعنا صوت سيارة تقترب، سادت حالة من السكون في المهجع. أُرهِفُ أذنيَّ إلى حركة الخارج التي تفصلنا عنها هذه الجدران الغليظة، ماهي إلا لحظات حتى يُزاح الستار عن المجهول ونسمع الأرقام، أرقامنا، فينزل المعنيون بالرقم المُعلن في ضيافة ملك الموت.

يهمس زهير في أذني اليسرى: «معقولة ياخدونا نحنا؟». أستعيد أنفاسي دون جسدي المنهك لأجيبه. ضربٌ على الباب يحدِث صدعاً في جدار هذا الصمت يمنعني من إجابة زهير. نقوم بسرعة بالحركة المعتادة، يُفتح الباب.

ينادي السجّان أربعة أسماء. أسماء هذه المرّة وليست أرقاماً.

«حاضر» يقولها كلّ شخص مع رفع يده، ثم يذهبون إلى الباب، تُعصَب العيون وتلتفّ الأقمشة حول اليدين من الخلف، ثم يُغلَق

الباب. تقودهم تلك السيارة إلى مراكز التحقيق التي تجسد أرخبيلاً ممتداً على جغرافيا البلاد.

ابتسم زهير في وجهي معبّراً بذلك عن ارتياحه قليلاً بعد أن عادت نبضات قلبه إلى معدّلها الطبيعي، إذ إنّ استدعاءنا لم يأتِ بعدُ والريح لم تُفقد قاربنا توازنه.

هكذا استمرّ التحقيق حتى بعد الظهر. أُعيدَ كلّ من جرى استجوابهم بعد إهانة شرفهم وإسماع صرخاتهم للنجوم.

في هذه الأوقات كنت أفتقد حكايات ياسمين وفمها المدوّر وصوتها الخارج من شفتين جميلتين. ياسمين حبيبتي. ياسمين التي كانت حلم معظم أبناء حيّنا.

تعرّفت عليها في المعهد، كنت حينذاك في صفّي المدرسي الحادي عشر، الذي كنت أذهب إليه وأجهّز نفسي لامتحان البكالوريا بعد سنة من الآن. وحال ياسمين كان كحالي، فجمعنا القدر وربطنا الودّ فأصبحت مع مرور الأيام توأم روحي. لقد غمَرَتْ قلبي وأعجبني خلقها بعد تجسُّس بريء على تصرفاتها مع الآخرين في الفصل.

بدأنا نتراسل على مواقع التواصل الاجتماعي، وعرضت عليها علاقة عاطفيّة، بعد أن استسلمت لحبّها الذي كاد يغتالني بسحر عينيها وبشعرها الأسود وبياض بشرتها.

بعد جهد ومعاناة في محاولاتي التسلّل إلى قلبها والإقامة فيه، وافقت على حبّي «العُذريّ».

شوقٌ قاتلٌ إلى ياسمين في هذا الجو المختنق بالرعب والظلم، هنا في جوٍّ تترسّخ فيه الآلام والصيحات. آه! هذه الأفكار تزيد من معاناتي.

«عصافير بطني» باشرت بعزف بعضٍ من ألحان الجوع، وليس في

وسعي فعل شيء سوى الصبر حتى يوم غد لأُمرّر بعضاً من الغذاء إلى معدتي بعد أن أتلذّذ فيه بمضغه حتى يتعب فكّي السفلي. حبَّذا لو أحلّق بعيداً إلى عالمي الخاص، ولكنّ الجوع كافر، هذا الجوع الذي تحوّل إلى قيود كبّلت الأيدي والأرجل.

مضت الساعات ونشر الليل أجنحته، أحاول النوم لكن الجوع يفعل فعلته بي. لا أذكر كيف نمت وكيف تغلّبت على ذلك الألم، ولا كيف تحرّرت روحي وخرجت من السجن لتتجوّل بعيداً في عالم الأحلام.

## اليوم الثاني

ثلاث صفعات صغيرة زاخرة بالمحبة من قبل راكان على وجنتي اليسرى كانت كافيّة لتعيد إلى جسدي روحه الهائمة في عالم الأحلام. أقمت صلاة الفجر على الرغم من الأنين الثاقب للأذنين، وذلك بعد أن طلب مني راكان ذلك. لم أملك أيّ شعور يوحي بعدم الرغبة في الصلاة. هذه المرة أقمتها بخشوع وإجلال.

بعد الصلاة انهالت علينا الأسئلة عمّا يجري من تطورات في الساحة السياسيّة. معظم الأسئلة كانت تدور حول مؤتمر جنيف2، الذي يعمل على إيجاد حلّ سلمي في سوريا وتشكيل حكومة انتقاليّة من المعارضة والنظام، أحد أهم البنود الأساسيّة للدخول في هذه المفاوضات هو إطلاق سراح جميع المعتقلين القابعين في زنازين الأسد.

قمت بقصّ الكثير من الأحداث الميدانيّة على مسامعهم إلا أنّ الاهتمام الأكبر كان يتركز حول مجريات مؤتمر جنيف. غزا البؤس الوجوه بعد أن عرفوا أنّ المؤتمر يؤجّل من أسبوع إلى آخر دون قدرة على إيجاد مخرج لنا، وأنّ آخر خيوط التفاؤل قد قُطع منذ زمن.

«هلّق صارت الناس فيها تحاكينا ونحن كمان نحاكيهم»، قال لي

زهير بصوت خافت محاصراً فمه بيديه في الوقت الذي تتحرك شفتاه عند حدود أذني اليمنى.

نعم، على الرغم من أنّها حريّة مزيفة، إلا أنّنا نشعر وكأنّنا أصبحنا أحراراً. أحرارٌ نحن في التواصل مع الآخرين ضمن نطاق معين، لقد رُفع الحظر عن أفواهنا ليصبح بإمكاننا أن نتحدّث وأن يُسترَقَ السمع إلينا.

أملك مخزوناً لا ينتهي من الأسئلة التي بقيت معلقة في ذهني، رغبة عارمة تجتاحني للبوح بها، فضول عنيف يلاحق أجوبتها.

أبدأ يومي هذا بمقابلة فتى يمكث بالقرب منّا بجانب الجدار الأيسر للمهجع، بدا لي وكأنّه في الخامسة عشرة من عمره، إلا أنّ هيئته خدعتني. الفتى الشقيّ كان ذا ثمانية عشر ربيعاً. أقدّم له نفسي قاصداً توسيع دائرة معارفي وطامعاً في لملمة أجوبة أشبع بها رغبتي في معرفة ما يدور في هذه المنطقة المظلمة.

«براء» شاب وسيم تعود جذور معاناته إلى الثالث والعشرين من نيسان، حين اعتُقل مع ابن عمه بتهمة التظاهر «للنَّيل من هيبة الدولة السوريّة». يروي لي قصة اعتقاله ثم يبكي وهو يتذكّر أخاه الشهيد الذي قُتل برصاصة غادرة استقرت في جسده حين كانت المظاهرة المناهضة للنظام تتفرّق بسبب سيل الرصاص الغزير. أخوه الشهيد تيم والأخ الآخر سامي كانا قد اعتُقلا في بدايات الثورة وأُطلق سراح سامي بعد يوم، أما الأخ الشهيد فقد أخلي سبيله بعد ثلاثة وعشرين يوماً. أصرَّ الشهيد على المضيّ في صراط الثورة حتى اليوم الذي قتلته فيه تلك الطلقة الخارجة من فوهة سلاح شبّيح مؤدلج.

«بعد ما استشهد، ضعنا بهالدنيا، كان سند العيلة»، قال براء مع شهقة عميقة معتقلاً فيها كميات من الهواء في رئتيه. أثخنتني تلك

القصة المحزنة، عدت أدراجي إلى مكاني الضيق. وجدت نفسي وسط عاصفة كلماته، تغيّرت ملامح وجهي.

«أتذكُر... أتذكُر أم أذكّرك؟! أتذكر عندما كان والدك يأمرك بالذهاب إلى تجمّعات الأطفال للّعب معهم وأنت كنت تعصيه وتبقى في مجالس الكبار؟ أتذكر كم كان والدك يقول لك: على شو مستعجل تصير كبير، خلّيك صغير وتهنّا بطفولتك؟ كنتَ مستعجلاً على هجر طفولتك حافياً لتصاحب الكبار»، كان الصوت يأتيني من داخلي، «أنا ذلك الطفل ذو السبعة أعوام، أنا المقيم داخلك. لقد تركتني وحيداً ظنّاً منك أنّ الدنيا قريّة صغيرة تتوسطها ساحة تسمى البراءة وتتوزع على جغرافيتها المحدودة السعادة. لم تكن في مملكة لغتك كلمات مثل الظلم والقهر، القتل، الدمار، المعاناة، الموت... لم تكن تدرك أنّ هناك شيئاً يسمّى الموت وهو الرحيل التام، كان يقال لك إنّ عمة والدك، التي كنت تحبها، قد رحلت إلى كوردستان العراق لتجلب لك ألعاباً، وكنت تصدّق كذبتهم، كم كانت طفولتك بريئة! كنت تظن أنّ الموت إجازة قصيرة ومن ثم يعود الراحل!».

تشتّد بي هواجس طفولتي، أهزّ رأسي عدة مرات مغلقاً عينيَّ، أهرب من روح طفولتي التي ندمت على هجرها، ولو كان شريط الزمن تحت أمري لأعدته إلى الخلف، لأبقى مختبئاً مع طفولتي.

أنهض مرة أخرى وأذهب إلى براء، أعتذر منه بسبب عودتي إلى مكاني، نستأنف حديثنا من جديد.

طرحت عليه أسئلتي بسرعة وأجابني بحبّ.

لأماكن التحقيق قسمان، قسم يقع هنا والمعتقلون التابعون له يرقَّمون، وينادونهم بالأرقام وليس بالأسماء، ممنوع على أيّ شخص

معرفة أسمائهم، لكن المعتقلين يتعرف بعضهم على بعضهم الآخر وعلى أسماء أصحاب تلك الأرقام، وينتهكون القواعد دون علم السجّان. والقسم الآخر وهو في الطرف الآخر، لكن المعتقلين هناك لا يجري ترقيمهم والسبب مجهول لنا. أما بالنسبة لهويّة المكان الذي نمكث فيه فهو مجهول للجميع، لا أحد يعلم أين نحن. حين أتى «براء» إلى هذا المهجع كان عدد المعتقلين اثني عشر معتقلاً، وقد عَمَر بالمعتقلين مع مرور الوقت.

بعد مضيّ وقت لا بأس به في تبادل الأحاديث دُقّ الباب، وطُلب عدّة معتقلين إلى الاستجواب. عادوا بعد ساعات بأجساد مرهقة.

حين وقفت لأصلي صلاة الظهر رأيت رجلاً يحاول القدوم إلى المرحاض، أُشخصُ إليه، يثقل جسده ويسقط على الأرض. تجمّعنا حوله لكن لا نبض حياة فيه. اضطرّ رئيس المهجع أن يستنجد بالسجّان. دخل هذا المهجع مع كرباج بيده. لم يصدّق أنّ السجين وقع من شدّة الجوع، أبرحه ضرباً حتى تيقن أنّ جسد الرجل لا يستجيب. غادر لوهلة ثم أتى ببعض الأدوية آمراً رئيس المهجع بإعطائها للرجل. عادت روح الرجل لجسده بعد دقائق.

بدأت أقضي وقتي في بيئتي الجديدة بالتجول بين الناس أبادلهم الأحاديث، بل يمكن القول أبادلهم الثرثرة... تلك العادة التي كان لها حضور ضعيف في شخصيتي، لكن الإقامة هنا بين أربعة جدران أثارت تلك العادة. اكتشفت هناك موهبتي في الثرثرة. الثرثرة فن لا يجيده إلا بعض الناس. عليك أن تجرّ الطرف الآخر إلى الحديث حتى إن لم يرغب هو بذلك، تحدّثه عن الماضي وعن الذكريات بشقّيها: الجميل، والمُوجع، لكن لا تكن متسلطاً في الثرثرة، امنح الشخص المقابل أيضاً

الحقّ في الكلام ليشعر بالمساواة. امنحه حقّ الرد ليلتمس الحريّة وهو يُدلي بدلوه في الدولة «الثرثريّة».

هناك نوعان من الثرثرة خلف القضبان: صنف لا يُعاقَب عليه وهو الكلام ذو الصوت شبه المبحوح، وآخر يُعاقب عليه وهي ثرثرة يُسمع صدى حروفها. حينئذٍ يأتي السجّان في الليل ويقوم بجولة على كلّ مهجع ويضرب المعتقلين بعد أن يحدّدهم له رئيس المهجع مُغتصَب الإرادة. في حال عدم تحديد أيّ اسم يُعاقب رئيس المهجع.

أمضيت يومي في الثرثرة بصوت خافت خوفاً من العقاب، بفضل هذه الثرثرة «المباركة» لم أعد أفكر في الجوع، بل حتى لم أعد أشعر به، لقد كانت مائدتي ثرثرةً مشويّة.

يبسط الليل رداءه وأنا محروم من رؤية ابنه. في الحقّ لو لم تتّخذ حياتي هذا المنعطف، لكنت الآن على سطح منزلنا مستلقياً على فراشي، مبادلاً القمر النظرات. بعد مضيّ بعض الوقت أثقل النوم جفوني فاستسلمت له.

## اليوم الثالث

أستيقظُ من نوم عميق وكأنّني كنت في الكهف نائماً، كأنّني غبت عن هذا المهجع ثلاثمئة وتسع سنوات. أكتشفُ أنّ هناك شيئاً أو أشياء تتحرك على جسدي، من مكان إلى آخر، جلدي يحكّني. أخلع بيجامتي عني، أرى قملاً أسوداً يزحف على جسدي، يستمتع بشرب دمائي، أعدم بعضه عن طريق وضع القملة بين إبهامي اليدين والضغط عليها من كلا الجانبين. لم أستطع القضاء عليها جميعاً لأنّها كثيرة.

إنّ القمل جزءٌ لا يتجزأ من البيئة المحيطة بنا، بل بإمكاننا القول إنّ القمل مشاركٌ في أعمال التعذيب، فهو يحتلّ الجسد ويمصّ الدماء. الكثير من المعتقلين هنا قاموا بتلطيخ أجسامهم بالدماء، حيث يحكّون وينهشون مواضع القرصات بأظافرهم لدقائق. يقوم بعضهم بخلع الثياب يومياً في معركة هدفها إبادة القمل لكنهم يفشلون. القمل يتكاثر أضعافاً.

أُصلي صلاة الفجر بعد إعدام بعضٍ من هذا القمل ومسح أجزاء من جسمي بقطرات من الماء. ما إن أنهيت صلاتي حتى بدأت أسأل نفسي: لماذا أصلي الآن؟ لِمَ لَمْ أصلِّ حين كنت خارج القضبان؟

عادت بي الذاكرة إلى سنة 2008 حين كنت طالباً في الصف

السابع. طلب منّا معلم التربيّة الإسلاميّة أن نشكل حلقة في الصف وأن يمسك كلٌّ منّا بيدَي زميلَيه وأن نعاهد الله، معاً وأمام الجمبع، أن نصلي كلّ يوم. حينئذٍ بدأت أصلي خمس مرات في اليوم. كانت صلاتي تلك تُسعد والديّ المحافظين. أقلعت عن هذه العادة بعد تسعة أشهر تقريباً.

صلاتي التي بدأت بأدائها في اليوم الثاني وسّعت شعور الأمان في داخلي، وكانت تثقب فسحة أمل كبيرة في هذا الظلام. بدأت أرى في نفسي الرجل الصالح، حتى أني شعرت أنّ الوحي سيأتي إليّ برسالة ما! تقرّبت من الإله كي لا أشعر بالوحدة، ببساطة أحسست بوجود قوى مكلّفة من الله حولي. كلّ هذا أشعرني بالقوة. كانت تلك الأحاسيس المجتمعة تطارد شعور الانتكاسة داخلي.

في ظل ضياعي في متاهات الإيمان والدنيا تذكّرت أنّ اليوم هو اليوم الذي تنتهي فيه عقوبة الحرمان من الطعام، مما يعني أنّه، بعد ساعات قليلة، سيصمت بطني عن القرقرة.

تدخل البقعة الشمسيّة كعادتها كلّ يوم قاطعة ملايين الكيلومترات لتتسلّق الجدار الأيمن من هذا المهجع. على غفلة تناهى إلى مسمعي صوت خطوات السجّان، يقرع الأبواب ويُدخل شيئاً ما، علّه الطعام، ثم لماذا علّه؟... إنّه الطعام... هكذا يُشعرني إحساسي الجائع.

تقترب تلك الخطوات أكثر إلى باب مهجعنا. يُدقّ الباب بضربتين. نلجأ جميعاً إلى الحركة الروتينيّة المُذلة. يُفتَح الباب ويستلم رئيس المهجع عدة أكياس، يرحل السجّان بعد أن يطبق الباب خلفه.

نهرع جميعاً إلى تلك الأكياس، نُشكّل كتلة بشريّة حول رئيس المهجع. فور رؤيتي لتلك الأكياس تخيّلت طعاماً شهيّاً. في حياتنا

الطبيعيّة كنّا نجلب الفروج المشويّ أو وجبة الشاورما مع المايونيز والمخلّل بأكياس مشابهة.

أمرنا رئيس المهجع بِحلِّ تلك الكتلة والعودة إلى أماكننا ليبدأ توزيع الطعام. عدنا سمعاً وطاعةً. قام شخصان بمساعدته، أحدهما يحمل الخبز شبه اليابس والآخر يحمل كيس الطعام، فيما يقوم رئيس المهجع بالتوزيع.

قطعتان من الجبن المثلث لكلّ معتقل مع قطعة من رغيف الخبز شبه اليابس. يصل الطعام إلينا، يفرح أصدقائي بينما أنا أحاول الهروب من صدمتي؛ الطعام ليس سوى جبنة غريبة. لم يكن لي خيار سوى التغلّب على تلك الصدمة والتهام هذا الطعام شديد الحموضة.

عند الحائط الأيسر كان معتقلٌ لا يأكل ولا يعير اهتماماً للطعام، لا يصرخ، لا ينطق حرفاً مكتفياً بنظرات جامدة وبورقة بيضاء مُلتفّة كالسيجارة في فمه. لا أعرف من أين أتى بها.

بعد الانتهاء من الطعام الذي أسكت صوت معدتي قليلاً، أذهب إليه بجسدي المُنهك وأستأذنه لثرثرة وجيزة. أتعرّف عليه.

رجلٌ ضخم، طويل القامة، ذو وجه مغطّى بلحيةٍ بنّيّة كثيفة وطويلة وعيون خضراء. كان مرتدياً كلسوناً وفانيلّة منقّطة بدماء ناشفة، جلده في حالة استرخاء تام بعد أن لاقت الكتل اللحميّة حتفها واختفت. يلفت النظر فيه أيضاً آثارُ كرشٍ انقرض من الوجود.

اسمه أبو عامر، صيدلاني يملك صيدلية في بلدة صحنايا التي تقع في غوطة العاصمة دمشق الجنوبيّة الغربيّة. اعتُقل منذ واحد وخمسين يوماً بعد أن جرى اقتحام صيدليته واقتياده إلى هذا المكان المجهول. اتّخذ في اليوم الثاني والعشرين قراراً يعتبره هو «جريئاً»، فهو يواصل

إضراباً عن الطعام منذ ذلك الوقت. السبب الذي دفعه إلى ذلك هو الظلم والتهمة الباطلة.

عُذِّب أبو عامر عدّة مرات في غرفة التحقيق لكي يعترف بتهمة علاج جرحى «الإرهابيين»، أي مداواة جرحى الجيش الحر والمتظاهرين. رفض ذلك.

«لقد كنت معارضاً للنظام بس بالقلب فقط لا غير، لأنّو ما بدّي تتأذّى عيلتي»، يقول أبو عامر.

مع مرور الوقت أصابته حالة إحباط، كآبة ويأس، فأضرب عن الطعام طامعاً في التقرّب من الموت كي يصطاد روحه ويترك هذه الدنيا «البائسة». لقد وصل به الحال إلى أن ينتحر، لكن الانتحار أمنية صعبة المنال، ليس خوفاً من الموت بل لأنّ كلّ الأدوات التي قد تساعد المعتقل في الخلاص من هذا الكابوس تجري مصادرتها قبل إدخاله إلى المهجع، مثل الحزام الجلدي، رباطات الأحذيّة، الساعة، الخاتم... الخ.

قمت بمواساته قدر الإمكان إلا أنّ حالة الإحباط كانت مُسيطرة عليه. بعد مدّة قصيرة من الثرثرة عدت إلى مُستقرّي.

بعد قرابة عشر دقائق يُدقّ الباب ويجري اقتياد عدة معتقلين إلى التحقيق. ثلاثة منهم نادوهم بأسمائهم مما يعني أنّهم اقتيدوا مع السيارة، واثنان آخران بالأرقام ما يوحي بأنّهما في ضيافة غرف التحقيق المجاورة للمهجع.

دقائق معدودة كانت كافية لتجعل صرخات المعتقلين الاثنين تطوف في الأرجاء. كانت الصرخات تشبه صرخات طفلٍ خرج من رحم أمه وهو يصيح.. ويصيح... رافضاً الحياة منذ بدايتها.

أسرع للصلاة، أصلّي بدقّة وإمعان في ما أردّده من آيات قرآنيّة. أدعو الله... وأدعو... وأدعو حتى أتعب.

بعد انتهائي من الصلاة شعرت بأنّه لم يعد بإمكاني البقاء في هذا الازدحام المدجّج بالصرخات وضربات الكرباج وصعقات الكهرباء، لقد ضاقت بي نفسي.

أنقذت نفسي باللجوء إلى ذكرياتي، لتوافق ذكرى واحدة على حقي في اللجوء إليها، وهي ذكرى «دجاج منزل خالتي».

في أحد فصول الصيف البعيدة بلغنا في وقت متأخر من الليل قرية «خزنة» الواقعة في الشمال السوري، هناك منزل خالتي، ذلك المنزل الذي يتستر بكساء من الطين. كان في فناء البيت المُلبّس بالطين مأوى صغير للدجاج، نمت سريعاً شوقاً لذلك المنزل الصغير، وطمعاً ببيضة الدجاج الأحمر.

استيقظت في صباح اليوم التالي، زقزقة العصافير وأصوات السيارات في كلّ مكان، سرتُ إلى ذلك البيت حافياً والنوم يثقل عيني. وصلت إلى عتبة بابه، هاجمت مأوى الدجاجة لأخطف منها بيضة، أهاجم فتقفز الدجاجة، غالباً كانت تشتمني ببعض الكلمات من لغتها. تقفز من مكان الى آخر ويتطاير ريشها، رأيت البيضة، مقصد قدومي إلى الحجرة هذه. خطفتها فارتسمت ابتسامة نصرٍ على وجهي. قطعت مسافة الفناء والبيضة في قبضتي، دخلت المطبخ، ناديت خالتي لتأتي وتقلي لي البيض، كانت تقلي البيض بمحبّة إلا أنّها كانت تنذرني، كما دوماً، من طريقة دخولي الجنونيّة إلى حجرة الدجاجة.

في اليوم التالي بعد أن رفع الظلام أجنحته ركضت إلى حجرة الدجاج لأهاجمها، بدأت الدجاجة كالعادة بالقفز من زواية إلى

أخرى. أخذت البيضة وحملت عصا الترحال، قمت بتناول البيضة بعد أن قليتها بنفسي في خفّة. لا أحد علم بذلك.

وفي اليوم التالي أذهب الى حجرة الدجاج أيضاً قاطعاً الفناء في حرّ الصيف غير المحتمل. أفتح الباب. أرى الدجاجة وهي تنتقل من مكان الى آخر دون وجود أثر لأيّة بيضة على القش!! لم تعد تلك الدجاجة الحمراء تبيض لعدة أيام، لذلك طلبت من أمي الذهاب إلى القامشلي، حيث تقيم عائلات أعمامي.

أعود من رحلتي هذه إلى المهجع. أعود إلى معاناتي بعد انتهاء رحلة الذاكرة والتدحرج في تفاصيلها.

بعد قرابة ساعتين عاد المعتقلان إلى المهجع، وذلك بعد اعترافهما بالتهم الموجهة لهما، وهي التظاهر ضد الدولة وإغلاق الطرقات ورفع علم الإرهاربين (أي علم الثورة). قال أحدهم: «ما كنّا رح نعترف، بس والله التعذيب ما بيرحم». كانت التهم الموجهة لهما مثبتة بالصور، لذلك ما كان التكذيب يشفع لهما.

تأتي السيارة مرة أخرى وتذهب بأربعة معتقلين آخرين إلى التحقيق دون أن تُرجع الثلاثة السابقين. بعد قرابة الأربع ساعات أُعيدَ الجميع إلى المهجع، وذلك بعد فصل من التعذيب.

قرابة العصر جُلبت وجبة الغداء. قام رئيس المهجع بفتح ثقب في مقدمة كيس بعد أن شدّ أسنانه عليها. بدأت أتلصّص عليه من بعيد لأعرف نوع الطعام الذي يجري توزيعه. شيء ما ينزف من ذلك الثقب بعد الضغط عليه من جانبين. نرفع الرغيف إلى فوهة الكيس ليسقط فيه، ثم يذهب رئيس المهجع وأتباعه إلى غيرنا من المعتقلين. لقد كان ذلك الشيء «مسبّحة» (أو حمّص كما يسميها البعض) جافّة حامضة يابسة.

بَلغَنا المغرب، وبعد أدائي للصلاة صارحت نفسي قليلاً. في هذا اليوم كنت أؤمن وبشدّة أنه سوف يُطلق سراحنا في الصباح، أو سراحي وحدي ربما. يعود سبب ذلك إلى أخي الكبير رودي، قدوتي في التمرد ضد سلطة العائلة. كان يقال لي دوماً إنّني نسخة متأخرة عنه بتسع سنوات. حركاتي وعصياني ضدّ تقاليد العائلة، طريقتي في الكلام، مشيتي... كلّ هذه الأشياء كانت نسخة منه. سُجن أخي ثلاث مرات. في المرة الأولى اعتقل ليومين وأُطلق سراحه في اليوم الثالث، وذلك بسبب نشاطه ضد النظام. بعد اعتقاله هذا كنت على يقين تام بأنّني سوف أكون يوماً ما في السجن.

ها أنذا قد دخلته، ولكن على ما يبدو ليست كلّ التفاصيل متشابهة، إنّه يومي الثالث ولم أخرج بعد.

حلّ الليل مرة أخرى إلى أن بلغنا ذروته، لم أكن أريد فعل شيء سوى النوم في حضن أمي لتعاملني كالرضيع، والاستلقاء في حضنها لتدلّك مواضع آلامي، لكن، بما أنّ للأمنيات أفقاً محدوداً بالجدران الأربعة الشاهدة على جرائم هؤلاء الوحوش، نمت بجوار أمنيتي اليائسة بعد أن طلبت قدوم القمر.

## اليوم الرابع

لم يختلف هذا اليوم عن باقي الأيام السابقة وكأنّ المهاجع أصبحت كواكبَ تدور حول نفسها وحول الشمس الساكنة، والمعتقلون نجومٌ تتهاوى في عالم متخيّل. ما الفرق بين كواكبنا هذه والكواكب التي يعرفها الناس إلا المسافة الأقصر التي تُبعد كواكبنا عن تلك الكتلة النارية المُسمّاة بالشمس.

بعد صلاة الظهر تعرّفت على معتقل جديد. إنسان ذو قلب جميل وصدر رحب. كان اسمه جورج محمد. سطا الالتباس على تفكيري، احترت فيما إن كان مسيحيّاً أم مسلماً. اسمه الأول كثير الانتشار بين الأوساط المسيحيّة منذ زمن القديس جرجس، أمّا اسمه الأخير (نسبته) فاسمٌ مسلمٌ واضحٌ كعين الشمس.

لم أسأله عن ديانته، لكنه بطريقة ما لاحظ فضولي، وروى لي قصة هذا الاسم الذي يجمع بين الديانتين.

كان رجلٌ اسمه «محمد» يعيش في منزل صغير بجوار بيت أحد أجداد جورج، وفي يوم من الأيام أنقذ ذاك الرجل والد جدّ جورج من موت محتم، وذلك بعد قتله أفعى سوداء كادت تلدغه على ضفة نهر القرية، وكان ذلك الرجل يتصف بالقيم الحسنة والطيبة، لذلك

وبعد مرور السنوات رُزق الوالد بطفل وسمّاه «محمد» على اسم ذلك الرجل.

من خلال ثرثرتنا المتبادلة تبيّن لي أنّ جورج، الذي يقبع هنا منذ شهر ونصف، ليس بالرجل الذي يحمل الصليب في يده ويضع العمامة على رأسه، إنّما هو الرجل الذي يحلم بدولة مدنيّة تتّسع للجميع، لا مكان فيها لأيّ سلطة منفردة سواء إن كانت دينيّة أو عسكريّة أو مقتصرة على حزب واحد.

جورج هنا لأنّه شيوعي معارض للنظام «الوطني»، على الرغم من أنّه لا يحبّ الشيوعيين «لتجاربهم الفاشلة في بناء الدولة ونشوء دكتاتوريات في تلك الدول» كما كان يقول. لقد استُدعي مرّتين إلى التحقيق، وعلى الرغم من كلّ ذلك الألم الذي كان يجتاح جسده في غرفة التعذيب، لم يعترف بالتهم الموجهة له. «يا ترى ليش اتهموك بالشيوعية حصراً؟» سألته. «لأنّ المخابرات السوريّة بتتّهم المسلم بالسلفيّة، والمسيحي بالشيوعيّة» أجاب.

بعد مضيّ وقت لا بأس به أنهيت الكلام بعقد صفقة ثرثريّة مع صديقي الجديد، هذا الشخص الذي أطلق عليّ لقب «مراهق سياسي». كانت بنود الصفقة تتضمن تبادل الثرثرة في أيّ وقت.

مغلق العينين، في مكاني بين زهير وراكان، أغوص في بحر ذاكرتي التي تلتهب بنار الشوق. على الرغم من الرماد الذي يطغى على ذاكرتي، استطعت أن أتذكّر ذكرى لها من العمر أكثر من سبع سنين.

في الصيف كانت المدارس تغلق أبوابها الحديديّة، فيسود الصمت في كلّ زاوية، وتفتقد المقاعد للمسات الطلبة ويشتاق اللوح لطبشور يدغدغه، وخلال أيام قليلة كان والدي يشتري تذاكر الباص الذي يقلّنا

من دمشق إلى أقربائنا في الشمال. كنّا نصل إلى مدينة القامشلي وكانت الشمس تستقبلنا بحرارتها فوق العاديّة.

كان في منزل عمي حديقة صغيرة وكانت في فترة العصر تفوح دوماً رائحة التراب المغسول بقطرات الماء في تلك الحديقة، بعد أن ترويها زوجة عمتي. كنتُ دوماً أجلس على ذلك التراب مستمتعاً بتلك الرائحة.

في أحد الأيام وأنا أمشي في الشارع قاصداً الذهاب إلى منزل عمي، بعد عودتي من الملعب، صادفت عجوزاً وبيدها بعض الأكياس الممتلئة بالحاجات المنزليّة من خضار وغير ذلك، ذهبت إليها بسرعة طمعاً في أن أساعدها وأن أسمع منها كلمات مثل «الله يوفقك يا ابني.. الله يرحم أبوك وأمك.. الله يبعتلك بنت الحلال... الخ»، كانت هذه الكلمات تداعب روحي. ساعدت العجوز ورافقتها حتى عتبة منزلها البسيط، يداها المقشّرتان والجلد المزخرف بالتجاعيد كانا يوحيان لي بمعاناتها، لكنها تبدو راضية وتشكر الله على كلّ حال. وضعت أكياسها أمام الباب فمدّت يدها إلى محفظتها المتواضعة، وأخرجت بعض النقود الصغيرة لتعطيني كردٍّ للمعروف. رفضت المال قائلاً: أريد فقط رضاكِ ودعواتك.

ابتسمت وقبّلت جبيني، ثم رفعت يديها السمراوتين إلى السماء الملّبسة ببضع غيوم خفيفة ودَعَتْ لي. شعرتُ بطاقة إيجابيّة تزداد مع كلّ كلمة تنطق.

كم أحتاج الآن إلى تلك الدعوات لتزداد الإيجابيّة في نفسي المُنهارة.

رمشت ورأيت رجلاً طاعناً في السن يقف أمامي. ابتسامته أيقظت

فيّ مشاعر المحبة، وقفت أمامه وبدأ يلامس وجهي بيده اليمنى حتى فاضت عينه دمعاً، كان ذلك مثيراً للشجَن. سألته عن الذي يحدث الآن. «ذكّرتني بابني كريم لأنّك بتشبهو كتير... اعتقلونا سوا، ومرّة أخدوه عالتحقيق لحاله وما عاد رجع». قالها محاولاً تبرير تصرفه وهو يكفكف دمعه. قبّلني على جبهتي مرّتين. قبّلتُ يده لأُشعره بوجود ابنه ولو لثوانٍ معدودة.

نمتُ بعد أن أدركنا الليل وبعد أن عوقب تسعة أشخاص رُقِّموا بسبب أحاديثهم «مرتفعة الصوت».

## اليوم الخامس

يشرع الألم بالانسحاب تدريجياً على شكل دفعات من جسدي، مخلّفاً قواعد من آثار التعذيب. في بدايات صباح هذا اليوم يُؤتى بشخص في الخمسينيات من عمره إلى مهجعنا.

بدأت التحقيقات تأخذ مجراها حتى ساعات بعد الظهر. نتساءل أنا وأصدقائي فيما بيننا عن مصيرنا. إنّه اليوم الخامس وإلى اليوم لم يبدأ استجوابنا، ربما نُسينا. كثير من المعتقلين ينسونهم. ربما يستمر ذلك النسيان لسنوات طويلة، مثالي على ذلك هو مصطفى خليفة، صاحب رواية القوقعة، هذا الشخص المسيحي الذي اعتقل لمدة ثلاث عشرة سنة بتهمة الإخوان المسلمين، ذاق مذاق التعسُّف والعذاب. أُطلق سراحه في النهاية بعد أن بُعث من مقبرة النسيان.

يذهب راكان إلى أحد الأشخاص ويستفسر عن ماهيّة المشكلة. بعد عدة دقائق يعود ولكن دون جواب مفرح للقلوب، فقد قيل له إنّ هنالك الكثير من المعتقلين الذين لم يبدأ استجوابهم منذ أشهر.

شعور بالضيق بدأ يغزو صدري، خمسة أيام قضيتها بين أربعة جدران، ثم.. من يعرف؟... فلربما أقضي سنين طويلة أو أن أموت هنا.

سجون النظام السوري ليست حتى كقفص العصفور، فالعصفور

يغنّي بصوت عالٍ ولا أحد يعاقبه على ذلك. لربما كان غناء عصفور القفص لا يدلُّ على سعادته بل على معاناته.

كان في منزل أحد أقربائنا في ضاحية قريبة من دمشق عصفور «الكناري». كان ذا ألوان بهيّة جميلة. حين كنت أذهب إلى هناك كنت أحاول فكّ أسر العصفور ليحلّق في الهواء الطلق، لكن بعد كشفهم محاولاتي التي باءت بالفشل قام ابن خالي برفع القفص إلى أعلى الجدار، ليحرمني بذلك من تحرير العصفور. يا ليت كلّ من يملك عصفوراً في منزله يدخل السجن، كي يحسّ مذاق الإقامة خلف القضبان.

مضت الساعات بائسة حتى أرخى الليل سدوله. اقتادني بؤسي هذا إلى ذكرى حفلة زواج أختي «العرس»، حينذاك كنت في التاسعة من عمري.

معظم الأطفال يملكون أمّاً واحدة إلا أنا أملك اثنتين. فإضافة إلى أمي التي ولدتني، هناك أم أُخرى ولدت من رحم والدتي وهي أختي الكبيرة. كثيراً ما كانت والدتي تقيم في المستشفيات بسبب سوء صحتها، كانت الأمراض تتكاثر ضدّها. في الوقت الذي كانت فيه أمي تحارب الأمراض كانت أختي الكبيرة تعتني بي، وذلك بتفويض من أمي، لأنّني ببساطة الطفل المدلل «آخر العنقود».

مع مرور السنوات أصبحت علاقتي مع أختي علاقة أمّ بابنها لا علاقة أخ بأخته. كلّ مشاعري بدأت بصياغة نفسها من جديد.

في يوم من الأيام وجدت نفسي في صالة للأفراح في مدينة الحبّ القامشلي. كان الناس يرقصون والنساء يزغردن والجميع يضحك باستثنائي أنا. كنت أراقب أختي عن كَثب وهي بجانب العريس. كنت

أنتظر اللحظة المناسبة لأخطفها من هناك. لم أكن أدرك معنى الزواج. كلّ ما كان يُخيَّل لي عنه هو أنّ شخصاً ما «يشتري» الفتاة من أهلها بالمال. في تلك اللحظات، في الحفلة، بدأت كراهيّة عنيفة تطوف في أعماقي ضد عائلتي التي «باعت» أختي.

في نهاية الحفلة باشر الأهل توديع أختي وتقبيلها. أمرتني والدتي بدخول السيارة لنرحل. ركضت بعيداً. رميتُ قطعة من الحلوى، كانت بيدي، خلفي. وصلت إلى فستان أختي، أمي الثانية، الأبيض وتعلّقت به. بدأت أبكي وأرجوها أن تأتي معنا، عاهدتها في أن لا أتحدث مع أحد من عائلتنا بسبب خيانتهم و«بيعهم» لها. بكت أختي ورفعتني لتقبّلني. في نهاية المطاف أخذني والدي دون إرادتي وأدخلني السيارة وأعطاني علبة بسكويت. رفضت تلك الرشوة ورفضت مسامحة أهلي، إلى أن أتت أختي بصحبة زوجها بعد أيام من ذلك لتشرح لي كلّ شيء، وأنّ تصرُّفي كان مبنيّاً على سوء فهم معنى الزواج.

## اليوم السادس

انتهيت من صلاة الفجر. كان براء وابن عمه يحدّثون المعتقل الجديد الذي أتانا يوم أمس. أهرع، كما غالبية المُعتقلين، إلى الرجل ونجتمع حوله، كأنّنا في صحراء قاحلة ورأينا بئراً. التعطّش إلى أخبار تروي معرفتنا لما يجري في الخارج وتثلج الصدور تحفزنا للحديث مع القادمين الجدد. صاحبنا الجديد وللأسف لم يأتنا بأي جديد. نعود جميعاً إلى أماكننا. أوسّد ذراعيَّ وأدندن التسبيح.

أصلي الظهر على الرغم من اليأس الذي يلتف حولي كالكفن الأبيض. أقوم بعدذلك بتلاوة بعض الجمل التي تعلمتها هنا كمثل: اللهم إني كنت من الظالمين، أغفر لنا... اللهم إنك عفوٌّ كريم تحبّ العفو، فاعفُ عنا يا الله. تدخل تلك البقعة الشمسيّة كعادتها لتزداد علوّاً على الحائط مع جريان اليوم بتفاصيله المملّة. جرى اليوم استجواب أحد عشر معتقلاً ممن يتفاوت فرزهم بين أصحاب الأرقام وأصحاب الأسماء.

في هذا اليوم كنت أريد بحفاوة بالغة الثرثرة مع شخص يمكث جوار الجدار الأيسر، إلا أنّ جورج محمد حثّني على عدم التحدث إليه لأنّه غريب الأطوار ولا يتواصل مع أحد. يصلّي هذا الشخص الكثير

من الركعات على الرغم من أنه لم يكن يفعل ذلك في البداية. إنّه رجل ذو شعر أسود جعد وجسد نحيل، تبرز عظام قفصه الصدري، وذلك بسبب صيامه اليومي. لا أحد يعرف اسمه إنّما نعرف أنّ رقمه هو 34. نعرف أنّه رجل عراقي لجأ إلى سوريا مع عائلته خلال الحرب العراقيّة الإيرانيّة، لكن ذلك الطفل لم يكن يعلم آنذاك، أنّ حرباً أخرى تنتظره في بلاد اللجوء سوريا حين يكبر.

إضافة إلى العزلة المفروضة علينا، يفرض ذلك الشخص على نفسه عزلة أشد عزلة، فهو لا يكلّم أحداً. يدعو، يصلي، يفطر، ينام، يستيقظ، هذا هو الوتر الذي يعزف عليه يومياً.

أصلّي العصر، أسمع السجّان وهو يصرخ في المهاجع الأخرى، بعد دقائق قليلة يُدقّ باب مهجعنا على غير عادته من قبل السجّان. أوقف صلاتي في الركعة الثالثة عند السجود وأقوم بالحركة الروتينيّة. يصرخ السجّان فور دخوله المهجع، يُخرج من فمه كلمات مذلّة ويُطعم غضبه بشتم الآلهة. زفّ لنا بشارة العقاب غير البعيد. أحد الضباط سيأتي برفقة العديد من السجّانين.

لم يفهم أحدٌ منا جملة «عقاباً ليس بالبعيد». هناك احتمالان في ذهني، إمّا أنّنا سننال ذلك العقاب ذا الأسباب المجهولة بعد لحظات، أو نلتقي به في الأيام القادمة. على كلّ حال، إن كان ذلك بعد دقائق أو ساعات أو أيام، فالعقاب آتٍ لا محالة، ولا خيار لنا سوى الاستسلام.

بعد مرور ربع ساعة تقديرياً، نسمع أصوات صرخات المعتقلين، كانت كصرخات آتية من وادٍ عميق. لم تمرّ أكثر من نصف ساعة حتى وصل ذلك الشبح باب مهجعنا، فُتح الباب وبدأ الضابط بإلقاء كلمات مليئة بالحقد، كانت الدماء تفور في عروقه.

قمنا بتطبيق الأوامر، انبطحنا على بطوننا وخلعنا ثيابنا باستثناء الداخليّة. استلقى بعض المعتقلين على أجساد معتقلين آخرين، لضيق المساحة. أوحى إلي شعوري بأنّ قاربنا سيبدأ بالارتجاج الآن، وذلك بعد أيام معدودة من الهدوء شبه التام. لم تمرّ أكثر من عشر ثوان حتى بدأ العقاب، لقد انسحب الألم على كلّ جسدي، فأحدهم قد أفرغ كلّ حقده عليّ.

إنّه الجحيم. بعض العذاب هنا جسديّ وبعضه نفسيّ. صيحات البشر تحت التعذيب تخترق أغشية الآذان البشريّة وتُزرع في القلوب، الشوق المفاجئ للأحباب وضيق فسحة الأمل باعتناق الحرية، كلّ هذا يجعل القابع هنا يتمنى الموت آلاف المرات في اليوم الواحد، لكن يبدو أنّ ملك الموت ليس هو المخلّص هنا بل هو من يسرق الأرواح من الأبدان حين يرغب السجّان بذلك.

استمرّت حفلة التعذيب لدقائق طويلة بآلاتها وبنغمات سوطنا بالكرباج وبالحبال وبالأنبوب الأخضر البلاستيكي الثخين، وبأصوات صرخات المعتقلين بطبقاتها ونبراتها المختلفة.

بعد أن انتهوا قمنا بتنظيف المهجع من الدماء بالماء وببعض الأقمشة، ثم عاد كلّ شيء إلى الوضع «الطبيعي». واستمرت الحياة...

أدّيت صلاة المغرب على الرغم من عظامي المهشمة. بدأنا أنا وراكان نتحدث بالكرديّة وكان محور حديثنا هو الفتيات. مرّ شخص ذو عضلات ملتفّة من أمامنا، ثم توقّف ليقول: «مرحبا، أنا كنت رايح على التواليت وسمعتكُن عم تحكو بلغة غير عربيّة، صحّ؟».

أكّدنا له صحّة تفكيره بأنّنا لسنا عرباً بل نحن أكراد. نصحَنا أن لا نتكلم بالكرديّة فيما بيننا. في مهجعه السابق، قبل أن ينقلوه إلى هنا، كان

هناك شخصان كرديّان، وحين عَلِمَ السجّان بأنّهما يتحدثان بالكرديّة أخرجهما من المهجع وأشبعهما ضرباً.

نصيحته هذه أيقظت قصّة في ذاكرتي. في عام 2011، قام أمين السر في مدرستنا، التابع للمخابرات السوريّة والعضو في حزب البعث العربي الاشتراكي، باستدعائي لسبب «التكلم بلغة محظورة» أي اللغة الكرديّة، مع صديقي الكردي الآخر في المدرسة نفسها.

عادة ما يكون على المُتّهم توخّي الحذر في الاعتراف بالذنب، لكنني اعترفت بذلك لأنّني لم أكن أرى في ذلك ذنباً، إنّما هي لغة من بين مئات اللغات في هذا العالم. أنهيت كلامي معه، قائلاً: «اللغة هي الهويّة، فإن ماتت اللغة انقرضت الهويّة». أثارت تلك الكلمات حفيظته واشتد حَنَقُهُ. أتى بعصا كانت على رخام النافذة المطلّة على الشارع. ضربني عدة ضربات على فخذي حتى أتى المرشد الإجتماعي وخلّصني من همجيّته الحمقاء.

شكرناه، أنا وراكان، على نصيحته لكننا أصررنا على استمرارنا في التحدث باللغة الأم. قال وهو يضحك: «أخي إنتو الأكراد راسكُن يابس، ما بتسمعو كلام حدا».

استدار وذهب إلى مكانه، لاحظت ما لم يلفت نظري من قبل، حروقٌ على ظهره وخصوصاً في منطقة العمود الفقري. لقد كان عموده الفقري مغطّى بالقطن. الآن أدركت سبب نومه جالساً، فهو الشخص الوحيد الذي لا ينام على طريقة التسييف.

أصلّي العشاء ثم أذهب إليه، أتعرف عليه وعلى سبب اعتقاله. اسمه فارس، يمتلك جسداً ضخماً، كان يعتني بجسده عن طريق التدريب في صالات كمال الأجسام، قصّته تختلف عن كل القصص التي قُصّت عليَّ حتى الآن.

كان فارس يحضّر نفسه كي يلوذ بالفرار ويطلب اللجوء في أوربا، وذلك بعد ما توصّل إلى حقيقة مفادها أنّ المسؤول، الذي يعمل عنده فارس حارساً شخصيّاً، يشارك في قمع المتظاهرين. تدارك الأمر، وبعد قضائه على خوفه اتخذ قراره بالفرار، قام بتوديع عائلته، ثم ذهب إلى بيت عمّه لتوديعه. كانت عائلة عمّه تقيم في حيّنا بعد أن نزحت بسبب القصف الهمجي للنظام لبلدتهم داريا. دخل فارس الحيّ من مدخل آمن، حيث لا وجود لأيّ حاجز أمني هناك، ولكن حين خرج من الحي برفقة التاكسي ليصل إلى المطار، جرى توقيفه على المدخل الرئيسي للحيّ وأُقتيد إلى حيث نحن الآن.

حُقِّق معه مرة واحدة، رفض التهمة الموجّهة له، وهي «الالتحاق بجبهة النصرة وقتل الجنود السوريين»، ازدادت وحشيّة المحقق حتى وصل الحال به إلى أن جلب إناءً يحوي مياهاً مغليّة وتُركت تلك المياه تسيل على عموده الفقري. رغم الألم لم يعترف فارس بتلك التهمة الباطلة إلى يومه هذا. كان يومه السابع عشر.

على الرغم من معاناته تبادلنا بعض النكات، وبعد حصّة من الضحك الصامت عدت أدراجي ونمت.

## اليوم السابع

اكتفيت في هذا اليوم بالتعرف على شخص واحد اسمه حسام، كان بوسعي التعرف على آخرين ولكن الألم الذي عاد من جديد قيّد شهوتي ورغبتي في الثرثرة.

حسام رجل أسمر ذو شعر أسود وذقن طويلة، من مدينة دير الزور الواقعة قرب الحدود السوريّة العراقيّة. اعتُقل قبل سبعة وستين يوماً من اعتقالنا نحن. كان يؤدّي خدمته العسكريّة الإلزاميّة في الجيش السوري، وكان يجب أن يُسرَّح من الخدمة في أواسط عام 2012 إلا أنّ الأحداث الراهنة في سوريا لم تسمح بذلك، فحُرم من فرحة التسريح بعد أن جرى تأجيل التسريح من قبل الضباط المعنيين إلى أجلٍ غير مسمّى.

حسام قرر أن ينشقّ عن القوات السوريّة وخصوصاً بعد سماعه خبر انشقاق الكثيرين من أصدقائه وانضمامهم إلى صفوف الثورة. حصل على إجازة قصيرة، وذلك بعد دفعه رشوة لأحد الضباط. بقي حسام في بلدة قرب دمشق ريثما تسنح له الفرصة المناسبة للهرب إلى المناطق التي تسيطر عليها قوات المعارضة، ولكن تلك الفرصة تأخرت جداً، فوجد نفسه في حيرة من أمره بعد انتهاء مدة إجازته.

اعتُقل حسام في ليلِ الاثنين إثر مداهمة المنزل الذي كان يمكث فيه، وذلك بعد أن أُخبر عنه عن طريق بعض «العواينيّة». أُقتيد إلى هذا الفرع وعُذِّب عدة مرات حتى كشفَ الستار عن نيّته في الانشقاق وترك خدمة العلم.

يُدرك حسام «متل عين الشمس» أنّه سيحاكم في المحاكم العسكريّة التي قد تودي به إلى الموت، وذلك بتهمة «الخيانة العظمى» لكنه لا يكترث لذلك أبداً إيماناً منه بالثورة السوريّة «التي لا بدّ لنا أن نستشهد في سبيلها» كما قال.

لم يُغيّر هذا اليوم ملامحه، فالموت لم يزل في الضيافة والآهات والعذاب والاستجواب ما زالوا مصرّين على مصاحبتنا «بالصرماية العتيقة».

## اليوم الثامن

طلب منّي زهير الغناء. ذهبنا إلى أمام المغسلة وبدأت أغني بصوت خافت وشبه مبحوح بالقرب من أذنه اليسرى. غنّيت له أغنية كرديّة تقول:

أربعة جدران وباب حديدي
أفعل كلّ ما بوسعي لأراك.. لكنني لا أفلح
تعالي إليّ يا عزيزتي.. تقدّمي كي أراكِ
أنا الآن «ممو»
عاشقٌ.. أنا عاشقُكِ
وأنت الآن في عيني «زينْ»
تعالي إليّ.. تقدّمي.. حبيبك أنا

استمرّت آلة التعذيب بالاستمتاع بأجساد المُعتقلين حتى حلول وقت وجبة الغداء. جرى إدخال شخصين إلى مهجعنا في هذا اليوم، أحدهما مُسنّ والآخر شابّ.

تلاحقت الدقائق والثواني ببطء شديد حتى بلغنا الليل.

## اليوم التاسع

بعد تناول وجبة الإفطار، تعرّفت على شخصين من منطقة دُمَّر البلد، القريبة من منطقتنا: سعيد ومصطفى.

اقتيد هذان الشابان بعد اعتقالهما من قبل دوريّة كانت تلاحق سيارة سعيد، حين كان سعيد ينقل بعض مواد البناء إلى منزل عائلة مصطفى الذي كان يجلس بجانبه في السيارة. كانت التهمة شحن المواد البنائيّة إلى «الإرهابيين» لتشكيل حاجز على إحدى طرقات الريف الدمشقي. عُذِّبوا مرّتين، مرّة بعنف، وأخرى اقتصرت على عدة ضربات من الكرباج. تأكد المحقق، بعد التحري في حارتهم، أنّ التُّهم الموجّهة لهم غير صحيحة، لأنّه وببساطة «طلع التقرير فاشل».

احتماليّة إطلاق سراحهم كبيرة جداً لدرجة أنّهم حفظوا أرقام الهواتف الأرضيّة لبيوت الكثيرين كي يتّصلوا بعائلاتهم.

هناك طريقة واحدة فقط كي يُبشّر المعتقل ذويه بأنّه ما زال على قيد الحياة، هذا إن قلنا عنها حياة. فحين يكون معتقل ما على أبواب الحريّة، تقع على عاتقه مسؤوليّة كبيرة؛ ألا وهي نحت أرقام الهواتف الأرضيّة لبيوت المعتقلين على حائط ذاكرته. حفظ الاثنان خمسة وعشرين رقماً، ومن ضمنها رقم بيتنا ورقم بيت راكان. أتمنّى أن لا ينسوا أرقامنا.

أُكمل رحلتي الثرثريّة في أصقاع هذا المهجع بالتعرف على شخص جديد. شخص نحيل لا يلبس سوى ثيابه الداخليّة كي يتخلّص من القمل ويختصر العذاب على قطعة قماش واحدة «الكلسون». اسمه مُراد ورقمه 19. ينتظر مراد التبصيم على الاعترافات على أحرٍّ من الجمر. ينحدر من بلدة مناوئة للنظام على أطراف العاصمة، اعتُقل في إحدى المظاهرات الليليّة بعد أن باغتهم الشبّيحة في لحظة عابرة كالمياه الجارية في النهر. حُقِّق معه مرّتين، أُغلق «ضبطه» في الثانية. طُلب منه في التحقيق الاعتراف بأنّه هو من قام بوضع عبوة ناسفة في ساحة السبع بحرات في قلب العاصمة، تلك العبوة التي حصدت أرواحاً مدنيّة.

تحمّل ما لا طاقة له به، ذاق الأمرّين لساعات طوال في غرفة التعذيب، لكنه أبى الاعتراف بتلك التهمة الباطلة، لأنه يُدرك أن بعد الاعتراف بذلك ينتظره مصير مجهول قد ينتهي بالموت رمياً بالرصاص.

«كنت عم قول للمحقّق: أنا واحد بيحبّ النسوان، بشرب أحياناً.. شو دخلني بالسلفيين والإرهابيين والتفجيرات؟... يعني لو تهمتي دعارة... قوّاد عند النسوان.. كانت مقبولة.. بس إنّي كون إرهابي... إي الله ما قالها!»، قال مراد.

بعد قسط من التعذيب تركه المُحقّق يعترف بمشاركته في المظاهرات، ثم أغلق ضبطه.

أرجع إلى مكاني. حاول رجل ذو لهجة بدويّة يلبس جلباباً بنيّاً تفوح منه رائحة العرق جذبي إلى ثرثرة كلاسيكيّة. افتتح حديثه بمقدمة عن الأمل وعلى أنّ الصبر مفتاح الفرج، ثم قال لي: إذا خرجتَ في يوم من الأيام، تزوّج.

ضحكتُ ضحكة خافتة. أكمل حديثه، تكلّم عن جمال الحياة الزوجيّة، وخصوصاً «إذا رجعت عالبيت وشفت زوجتك عم تطبخلك» وأنت تقول لها: «يا امرأة، خذي عني البندورة والبصل واطبخي جظّ مظّ!».

كانت تلك نظرته إلى المرأة. حياتها للمطبخ والرجل للعمل خارجاً. لم تثمر محاولاته المتعاقبة في استقطابي إلى جدال معه، لأنّ حديثه مؤطّرٌ بالتقاليد التي أعتبرها بالية.

كنت أصلي الظهر وأتقرّب من الله حين صاح رجلٌ من شدّة الألم، كان مصاباً بمرض البواسير. كان يشتكي من عدم فعالية الأدوية المقدّمة له ضد الجرب والبواسير. أصرّ على مطالبة رئيس المهجع «بإيصال صوته إلى طبيب الفرع الأمني». نصحه رئيس المهجع ومعظم المعتقلين بتحمّل الألم، لكنه رفض.

قام رئيس المهجع بمناداة السجّان: سيدي في شخص عم يتوجّع كتير، ممكن توصّل صوت الموقوف للدكتور وتناديه؟

شتم السجّان رئيس المهجع والذات الإلهيّة. بعد أخذ وردّ نادى السجّان للطبيب. أتى الطبيب برفقة ذلك السجّان وفي أعماقه بركان غضب يثور، أمرَ السجّان بفتح الباب. فُتح الباب. لجأنا إلى الحركة الروتينيّة.

«شوفي لك أخو الشرموطة؟ ليكون مفكّرين حالكون بشي برلمان أوروبي، حتى عم تقولو بدكن توصّلوا صوتكن» قال الطبيب. ثم أضاف بنبرة صوت هادئة: «يلّي عم يحسّ إنّه طيزه عم توجعه كتير من البواسير يطلع لبرّا منشان أعطيه دوا».

رجع إلى الخلف شخصان بعد أن رفعا أيديهما، الشخص الذي

اشتكى وآخر. خلعوا بناطيلهم بعد أن أمرهم الدكتور، ثم أمعن النظر لثانيتين. فجأة بدأت حممٌ تتطاير من فوهة البركان، أمر السجّان بجلب كرباج رباعي «كي يوصل صوتهم إلى منظمة أطباء بلا حدود». قال: «يلعنكم كلاب! منشان كم حبة على طيازكن، عم تنادوني؟».

ضرب مؤخراتهم بالكرباج. ارتطمت صيحاتهم العالية بجدران المهجع كأمواج تتكسّر على شاطئ ما. «قمت بضربكم بنيّة إيصال صوتكم إلى منظمة أطباء بلا حدود كي يأتوا ويعالجوكم بدواء أفضل»، قال الطبيب، ثم خرج مع السجّان الذي أغلق الباب خلفه.

هرعنا جميعاً... تكتلنا حولهم. كانت مؤخراتهم ملونة، حمراء زرقاويّة بسبب الدماء والكدمات. أتى رئيس المهجع بالمعقّم وبعض القطن، قام بتدليك مؤخراتهم ببعض من ذلك المطهّر. الشعور بالألم الحارق زاد من محنتهم أضعافاً بسبب المطهّر.

بعد ذلك، نقلهما رئيس المهجع ووضعهما في أقصى الزاوية اليمنى المجاورة للمغسلة، وذلك تجنّباً لأيّة عدوى قد تنتقل منهما إلى الآخرين.

في المساء، في ظل تكاثر القمل على خيوط بيجامتي وتطفّلها على دمي المتعفّن، بدأ الاشتياق إلى عائلتي، وبشكل خاص أمي وأبي، يعذّبني. متأكدٌ جداً أنّ والدتي الآن جالسة على شرفة المنزل، واضعة يديها تحت فكّها السفلي، شاردة، تنتظر خبراً عني. أتذكّر سحنة والدتي بكلّ تفاصيلها عندما كان ابنها رودي مُعتقلاً للمرة الثانية. لم نعرف عنه شيئاً حتى اكتشفنا بعد أشهر أنّه قد أُرسل إلى سجن عدرا المركزي. أتذكر كيف كانت أمي تبكي، كيف كانت تصلي ليلاً و نهاراً من أجل أخي. كانت لا تصدّق تلك الفرضيات التي كان يتداولها الناس عن

موت أخي تحت التعذيب. أتذكّر كيف أصبحت كالمجنونة تستيقظ من فراشها كلّ بضع دقائق وتقول: «سمعت صوت رودي يقول: ماما افتحيلي الباب».

أمّا أبي...

فأتذكّر خيبة أمله في الحياة بسبب اعتقال أخي، تلك الخيبة التي كان يريد إخفاء معالمها عنا جميعاً. أتذكر كيف كان يواسي أمي على الرغم من أنّه كان يفتقد المواساة.

لم أذق شعور فقدان الوالدين طيلة حياتي سوى مرة واحدة، وكان ذلك في سوق الحميديّة. قبل العيد بأيّام قليلة، حين اشترى لي والدي ثياب العيد. بعد انتهائنا من التسوق أراد والدي شراء القهوة العربيّة وبعض الحلوى. لم أكن أعرف الكثير من ملامح الحميديّة حين كنت صغيراً، كنت أعرف فقط أنّ السوق مزدحم دوماً. كُنّا في أحد الشوارع الفرعيّة نتجه إلى محل الحلويات وكنت مشغولاً بإشباع نظري بثيابي الجديدة. بعد دقيقتين من مداعبة شعور الفرحة بتلك القطع الأنيقة، اكتشفت أنني قد أضعت والدي.

كيف سيراني والدي بين هذه المجاميع البشريّة؟ مشيت، دخلت شوارع فرعيّة، تهتُ، بدأت أصرخ، أنادي والدي وأنا أبكي. تذكّرت ما قاله لي مرة: إذا جاء يومٌ وأضعتَ أحداً، لا تتحرّك من مكانك، ابقَ هناك.

عدت أدراجي بسرعة البرق. كنت أمسح دمعي ومخاطي بيد وأشدُّ كيس ثيابي بأخرى. وصلت إلى النقطة التي أضعت فيها والدي ووقفت هناك. أتى بعد دقائق. كانت رؤية أبي هي أجمل شعور في العالم.

كم أتمنّى أن أعانق الحريّة يوماً ما ليتكرّر ذلك الإحساس.

## اليوم العاشر

بعد صلاة الفجر ذهبت إلى أبي عامر وتحدثت معه قليلاً. أتى ذلك الرجل المُسنّ إلينا، الرجل الذي أُدخل إلى المهجع في يومي الثامن. طلب من أبي عامر سيجارة علّها تريح معاناته. ضحكنا أنا وأبو عامر في خفة ضحكة من أعماقنا. قال له أبو عامر: «شو مفكر حالك بمقهى يا رجل؟!... هاي ورقة عادية».

قضينا وقتنا في الثرثرة معه، تعرّفنا من خلالها على حكاية اعتقاله.

اسمه خالد، رجلٌ يعمُّ البياض رأسه كهضبة شيباء. في ليلة ما قبل البارحة اتصل به ابنه، الذي يعمل على سيارته الأجرة، ودعاه إلى القدوم بـ«السوزوكي» لنقل أثاث بيت عائلة تريد النزوح، قام الوالد بركوب السوزوكي دون أن يودّع زوجته، لم يكن يعلم ما يخفيه الزمن له. بعد وصوله إلى النقطة المطلوبة على طريق مطار دمشق، حاصرته عدة سيارات أمنيّة ووضعوه، إلى جانب ابنه، في سيارة «جيب»، لم يرأفوا بهما، بل تناوبوا على ضربهما حتى وصلوا إلى غرفة التحقيق مباشرة. هناك، عُلِّق الابن وعُذّب حتى قال إنّه ووالده قد قتلا عسكريَّين اثنين من الجيش النظامي.

رفض الوالد ادّعاءات ابنه أمام المحقق قائلاً: «الله وكيلك..

أنا واحد كبير بالعمر شو أقتل ما أقتل؟!... ابني وحيد ودرويش ما بيعرف شي».

لم تغيّر تلك الكلمات مجرى التحقيق، بل أصرّ المحقق على أقوال الابن وأمر السجّانين بتعليق الأب. بعد دقائق من التعذيب اعترف الأب بقتله للعسكريين وزادهم ثلاثة ليصبح المجموع خمسة. يضيف خالد ساخراً: «كدت أن أقول بأنّ جدتي وجدي استيقظوا من القبر، لتشاركني جدتي الجريمة ويجلب جدي الرصاص، وأنّ زوجتي اشترت لي السلاح».

عرفنا أنّ الشخص الذي دخل مع خالد إلى مهجعنا هو ابنه. كان قد اعتقل على طريق المطار للاشتباه بأنّه يقوم بنقل الإرهابيين في سيارته، وبعد ضرب مبرح أقرَّ بأنّه قتل «رجال الجيش العربي السوري»، ليس هذا فقط، إنّما هنالك شخص آخر يشاركه في ذلك وهو والده.

تذكرت إحدى قصص منطقتنا المتعلقة بالشاب عبدو. عبدو هذا كان يملك سيارة أجرة يعمل عليها. في يوم من الأيام انقطعت أخباره، واكتشف والده في ما بعد أنّ ابنه مُعتقل لدى أحد الفروع المخابراتيّة. دفع الوالد كميّات هائلة من المال للضبّاط حتى عَلِمَ بتهمة ابنه وهي «نقل الإرهابيين من منطقة إلى أخرى». بقي والده يعمل ليلاً ونهاراً ليسدد المال للضباط الذين كانوا يوهمونه بأنّ ابنه سيُطلق سراحه في القريب العاجل. بعد مرور أشهر على ذلك القريب العاجل استلم الوالد خبر موت الابن تحت التعذيب. لم تنته المأساة هنا فالأم ماتت بعد أن توقف قلبها حزناً وقهراً على ابنها الذي كان من أخير أولادها ومن أفضل الشبان خُلُقاً في الحي.

بعد بزوغ الشمس واقتحام تلك البقعة لمهجعنا ضُرب على

الباب بالأرجل، فدوّى صليل الباب في قبرنا هذا. فتح السجّان الباب واستدعى رجلاً في الثلاثينيات من عمره. لم تمر سوى لحظات قصيرة حتى سمعنا صرخات الرجل تتسلل إلى آذاننا من خلف هذه الجدران السميكة.

«ما دخلني بشي.. والله أنا عندي ابن معاق... ما دخلني بشي». كان الرجل يكرّر تلك الكلمات بين الصرخة والأخرى. مع مرور الوقت جرى تعذيبه بعدّة أساليب، آخرها الصعقات الكهربائيّة، كان صوته يرتعد... يتموج.

في لحظة تالية لم نعد نسمع تلك الصرخات. ظننت أنّه قد مات تحت التعذيب، لكن عرفت أنّه قد غاب عن الوعي حين سمعت لاحقاً صراخه من جديد. استمر حاله هكذا إلى أن أُعيدَ إلى المهجع.

كان قميصه ممزقاً وعلى جسده رسومٌ صنعتها الكرابيج. كان على ساعديه سوار أزرق، وذلك نتيجة للشَّبْح الذي تعرّض له. قدماه كانتا زرقاوين. بدأ يركض في مكانه علّ الألم يهدأ قليلاً.

جلس الرجل على الأرض ملقياً بنفسه على أضلاعه الجانبيّة، على ظهره.. لا يُفلح في ذلك، فالوجع يجوب في جميع أزقّة جسده. لحظتئذ ذهب اثنان من المعتقلين إليه وقاموا بتدليك جسده حتى زال قليلٌ من الألم.

بعد مرور ساعة تقديرياً ذهبت إلى صديقي جورج، تبادلنا الثرثرة قليلاً عن ذلك الشخص. تبين لي أن ذلك الشخص كان قد اقتيد مرة واحدة إلى التحقيق قبل عشرين يوماً، تهمته هي «قائد كتيبة» لكنه لم يعترف بها.

معظم المُعتقلين في هذا القبر الجماعي مُتهمون بالقتل والذبح

والاغتصاب، أغلبيّة ساحقة منهم اعترفت بتلك التهم تحت همجيّة التعذيب، كما يقول جورج. «كلّ فترة يأتي الإعلام الحكومي ويقوم بتصوير هؤلاء المساكين على أنّهم وحوش بريّة تأكل الأخضر واليابس، ويظهر النظام السوري على أنّه يواجه إرهاباً إسلاميّاً يهدد المنطقة برمتها. بعد أن تزول آثار الضرب على الجسد، وبشكل خاص الوجه، يجري تصوير المعتقل على كرسي، بثياب نظيفة وجديدة، ويُقدم على أنّه إرهابي.. سفاح.. ذبّاح.. مُغتصِب، ويُقدّم النظام نفسه هكذا كحمامة سلام لا يعذّب المُعتقلين بل يُكرمهم والدليل ثيابهم الأنيقة».

بعد ثرثرة غذّتني بمعلومات كثيرة، عدتُ إلى موضعي.

بدأت تلك البقعة تتسلق الجدار أكثر وأكثر. قرابة الظهر أتى السجّان وقرع الباب، قمنا بالحركة الروتينيّة. ألقى علينا أسماءً وأرقاماً، من بينهم براء وابن عمه وحسام وأبو عامر ومُراد، أخذوهم بعد تعصيب أعينهم وربط أيديهم من الخلف.

لم أدرك الموقف. بعد قرابة عشر دقائق أعيدَ البعض منهم، كانوا سعداء جداً، يتبادلون القبلات. لقد كان الفرح يتربع على القمة.

«مبروووووك... مبروووووك». كانوا يرددون المباركات. أذهبُ إلى براء وأستفسره، يقول: لقد بصمنا على اعترافاتنا، سوف يجري تحويلنا إلى الشرطة العسكريّة، ثم إلى المحكمة العسكريّة ومن هناك سيجري تحويلنا إما إلى المحكمة وإما فرع آخر.

على الرغم من كلّ هذا إلا أنّهم كانوا سعداء لقطعهم خطوة صغيرة جداً في درب حريّتهم، كما افترضوا.

بعد ساعات من تلك الفرحة ذهبنا، أنا وراكان، إلى براء وأعطيناه أرقام هواتف منازلنا كي يتصل بأهلنا إذا ما خرج من هذا الجحيم.

أصلي العصر. يُفتح الباب فجأة فنجلس بطريقة عسكريّة، يُدخل عدة أشخاص إلى المهجع، ظننت أنّهم معتقلون جدد، إلا أنّهم كانوا المُعتقلين أنفسهم الذين جرى استدعاؤهم في الظهيرة ولم تسبق إعادتهم. اللافت للنظر هي ثيابهم الأنيقة، ما يعني أنّه قد جرى تصويرهم. أغمز جورج غمزتين وأبتسم، فكلام جورج أُثبت لي الآن.

مع مغيب الشمس كنت أوزّع نظرات خاطفة على جميع أرجاء المهجع كوسيلة لتحقيق الغاية؛ والغاية هي الثرثرة؛ والثرثرة بهدف نسيان الألم الذي يشلُّ مفاصلي. ماهي إلا بضع لحظات حتى وجدت شخصاً مناسباً للحديث معه.

اسمه جاسم، من مدينة درعا، ذو شعر بُنّيّ غامق ووجه أسمر فاتح. جاسم جُنديٌّ انشقّ عن الجيش العربي السوري وذلك بعد تردد شديد كان يسيطر على قراره. انشقّ أخيراً عن القوات الحكوميّة بعد أن لجأت زوجته إلى الأردن. وعد شريكة حياته أن يلتحق بها في اليوم التالي في مخيم الزعتري الواقع على الحدود السوريّة الأردنيّة.

بالفعل، في اليوم التالي، هرب جاسم من قطعته العسكريّة. استقلّ دراجة ناريّة ورحل. بينما كان يقود الدراجة بتلك اليدين المرتعشتين كان قلبه يضرب أضلاعه بعنفٍ، كالمطرقة التي تُدقّ على المسمار لتُرهبه وتُجبره على الخضوع والغوص في أعماق الخشب. كانت صور زوجته تتقافز أمام عينيه، الخوف من المجهول أشعره بالندم على فعلته، لا... لكنه لم يكترث للخوف... شدَّ على الوقود وشدَّ.

القدر خانه بعد أن لاحقته سيارتان من الجيش وأردت أحلامه مقتولة. اُعتقل جاسم بذنب عدم رغبته في القتل.

المضحك المبكي هو اعترافه تحت التعذيب بالتهم المعتادة:

القتل، الذبح، الاغتصاب. قال وهو معلّق في الهواء: «خلاص سيدي متل ما بدّك.. أنا قاتل ودابح ومغتصب، بس نزّلني كرمى للّه».

اشترط المحقق من أجل إنزاله أن يحدد أرقام الذين «قتلهم وذبحهم واغتصبهم»، فاعترف بقتل عسكري رمياً بالرصاص وذبح آخر واغتصاب فتاة واحدة. «لم أكن أريد زيادة تلك الأرقام، لربما يكون إعدامي رحيماً في ما بعد». المحقق رفض ذلك العدد: «هيك ما بتوفّي معنا، ارفع العدد مشان نزلك... شو هاد... أنت كريم و نحنا منستاهل... ارفع العدد».

بعد صعقات من الكهرباء على شحمتي أذنيه وقضيبه، رفع العدد إلى أربعة لكلّ صنف من التهم. لم يكن ذلك بالعدد الكافي. استمر تعذيبه إلى أن خضع لإرادة المحقق. اعترف بأنه قتل أحد عشر جندياً، وذبح خمسة آخرين، واغتصب سبع فتيات مدنيّات.

أظن أنني ثرثرت بشكل كافٍ في هذا اليوم. هذه الثرثرة أصبحت طقساً مقدساً لديّ. أتعرف من خلالها على مآسي الكثيرين من المَنسيين ومن المُقيمين بالكُره إقامة جبريّة في المقابر المُغطسة بهمجيّة الدكتاتوريّة.

## اليوم الحادي عشر

تُبعثُ فيّ الروح برقة وليونة، أتقرّب إلى الله الواحد الأحد، أخضع له وأستسلم لإرادته، أصلي الفجر وأردد التسبيح «سبحان الله، الحمدلله، لا إله إلا الله، الله أكبر» عشرات المرات، تارة بسرعة وتارة أخرى بحركة شفاه بطيئة.

يُدق الباب بعد وجبة الإفطار، يُنادى براء وابن عمه وحسام وأبو عامر ومُراد وآخرون اعترفوا بذنوبٍ لا تقع في دائرة القتل والذبح والاغتصاب. يؤمرون بجلب أحذيتهم وشحاطاتهم معهم، يرجعون إلى الخلف، تُربط أعينهم بالطمّيشة وتُقيّد أياديهم بالأقمشة من الخلف، ثم يجري سحبهم إلى خارج المهجع.

الكثير من المُعتقلين خمّنوا أنّهم قطعوا الخطوة الأولى.

«سيدي، الله يكون معن لوين ما يكونو رايحين... عقبالنا جميعاً»، قال أحدهم. ثم ردّد الجميع: «آمين» بهدوء، كالشخص الذي يمشي على رؤوس أصابعه كي لا يسمع أحد وقع خطواته.

تحوّلت تلك الفرحة بعد قليل إلى نظرات رُعب نتبادلها. طافت الصرخات والصيحات وأصوات الكرباج والصعقات الكهربائيّة المتتالية في الأجواء.

في ظهيرة هذا اليوم نودي على ثلاثة أشخاص لم تُثبت عليهم التُهم، أحدهم كان مسنّاً ومُعتقلاً منذ مئة وستين يوماً، وآخرُ في العشرينيات من عمره، وهو من مدينة جوبر الواقعة في ريف دمشق، مُعتقلٌ منذ سبعة وتسعين يوماً، والرجل الثالث في الأربعينيات من عمره وهو ذو هيئة ضخمة ومُعتقلٌ منذ ثمانية عشر يوماً.

جرى إخراجهم على دفعتين، حَلقوا لهم شعر الرأس واللحية في غرفة مهجورة في المبنى عن طريق فتى معتقل يمتهن الحلاقة. أُعيد هذا الفتى بعد إنهاء مهمته إلى المهجع باكياً لهول خمس ضربات من كرباج رباعي على ظهره «مكافأة له». إضافة إلى ذلك قيل له أن يستعد في الأيام القادمة للتحقيق وأن يعترف صاغراً بتهمته: «نائب قائد كتيبة».

بدأ رجل في الخمسينيات من عمره بمسح رأسه الأصلع بكلتا يديه. أشدّ الرحال إلى جورج، ثم نذهب معاً إلى الحلّاق لنستفسر عن حاله. الفتى الذي لا يتعدى السابعة عشرة كان يعمل حلاقاً عند معلمه في صالون حلاقة. في يوم من الأيام اُعتقل المعلم ولم يُسمع أي خبر عنه. بعد شهر قرر الفتى أن يفتح صالون الحلاقة بنسخة المفتاح الاحتياطيّة التي يملكها. زاول عمله في الصالون لقرابة ساعتين. كان آخر زبون هو الرجل الخمسيني الذي يمسح رأسه الأصلع بكلتا يديه طوال الوقت. اعتقلا معاً من الصالون دون ذكر التهمة. لم يكن الفتى يُدرك أن مُعلمه اُعتقل بتهمة قيادة كتيبة من كتائب الجيش الحرّ، وأنّه أُجبر تحت التعذيب على تسمية نائب له، فأتى لسانه على اسم هذا الفتى. الزبون الذي أصبح ضحيّة هذا الاعتقال هو ضابط متقاعد، لكنه يعلم جيداً أنّ خدمته للوطن قد ذهبت سدىً.

في فترة العصر نودي الأشخاص الثلاثة وقيل إنّه قد أُطلق سراحهم.

بعد تقدير ساعة من الزمن أُستُدعيَ ذلك الرجل ذو اللهجة البدويّة مع أمتعته، أي حذائه، وقيل إنه أيضاً قد أُطلق سراحه. على ما يبدو كان من ضمن الذين لم تُثبت عليهم التُّهم.

بعد صلاة المغرب شرعت بمراقبة سعيد ومصطفى. كان وجهاهما مكتئبين، وكان اليأس قد خطف ثمار اللهفة التي كانت تغمر قلبيهما قبل ساعات. ربما كانا قد تذكرا للحظة واحدة طعام البيت الشهيّ وهواء المدينة. كان يجب أن يُطلق سراحهما لكنهما ما زالا بيننا.

«يمكن لسّه ما اقتنع المحقق بكلامنا... ويمكن بدّه يعذّبنا حتى نعترف على اللي بده ياه»، قال لي سعيد بعد أن ثرثرت معه قليلاً.

## الأيام المتشابهة

مضت الأيام بمجرياتها وتفاصيلها المُعقدة والشرسة حاملة معها مآسينا وهمومنا. سنحت لي الفرصة في التعرف على ذلك الشخص الذي كان براء وابن عمه يتحدثان إليه. إنّه رجل طيّب القلب مُحبٌّ للحياة وللإنسان.

هو زوج عمّة براء. في بدايات الثورة السوريّة نزح إلى الأردن مع عائلته، آملاً في أن يلحق بهم ابنهم العسكري بعد أن يجري تسريحه. على الرغم من انتهاء مدة خدمته الإلزاميّة إلا أنه قد اُحتُفِظ به في صفوف الجيش النظامي. اُعتقل الابن في أحد الأيام بتهمة التفكير في الانشقاق، ما دفع والده إلى ترك الأردن والقدوم إلى دمشق بعد أن عيل صبره. وصل والده إلى دمشق وبدأ يتواصل مع عدة ضبّاط لكي يُطلق سراح ابنه. لم يُدرك الوالد أن أولئك الضبّاط أنفسهم سيغدرون به.

في أحد المساءات اُعتقل الوالد في منطقة باب مصلى من قبل دوريّة تابعة للمخابرات. تكاثروا عليه بالضرب. المفاجئ في الموضوع هو اتهامه بالانتماء إلى جبهة النصرة. «قام أحد الأشخاص، المرتدي معطفاً عسكرياً وفي يده سلاح الكلاشنكوف، بوضع قطعة قماش في جيبي اليسرى، ثم طلب من أحد رفاقه تفتيشي... أخرج رفيقه تلك

القماشة السوداء والمكتوب عليها «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، قال أحدهم لي: لك أخو الشرموطة... هنت من جماعة النصرة؟ ثم أتوا بي إلى هنا.. لا حول ولا قوة إلا بالله... بس بدّي قول.. الله أكبر عالظالم!»، قال الرجل.

مرّة أخرى استُدعي ذلك الرجل والد الطفل المُعاق، أصرّ على موقفه الرافض لتهمة «قائد كتيبة»، أبهرتني شجاعته وتحمّله العذاب في سبيل إطلاق سراحه لإعالة عائلته. نعم، لم يخضع لنوايا المُحقق بالرغم من جسده الضعيف.

وكانت الأيام في هذا الجحيم متشابهة.

## اليوم السادس عشر

انتظرنا، أنا وأصدقائي، راكان وزهير، السجّان ليقوم بمناداة أسمائنا ويجري إطلاق سراحنا، فهذا هو اليوم السادس عشر الذي تنبأ به زهير في أحد مناماته بداية اعتقالنا. كلّما طُرق الباب انتفضت الفرحة في نفوسنا، ثم تخمد مرة أخرى بعد أن يُغلق.

كم كنّا أغبياء!! كم كنّا حمقى!! أيتعلّق المرء بأمل كاذب؟ لم يُحقَّق معنا بعد، والتحقيق الأولي ليس إلا وجبة مقبلات، كما وصفها المحقق ليلة اعتقالنا. إنّه الأمل الكاذب الذي يطفو عادة على بحر من المعاناة، إلا أنّ الحقيقة تقول إنّ السعادة قابلة للغرق مرة أخرى. بعد صلاة المغرب بدا لي مؤكداً أنّ نهاية رحلتنا على متن هذا القارب ليست قريبة.

## اليوم السابع عشر

يدخل قائمة معارفي في هذا اليوم شخص آخر، دوماً ما كانت قدماه بجوار رأسي. اسمه محمد وعمره ثمان وعشرون سنة، لديه لحية خفيفة، يرتدي ثياب عمله البيضاء.

لم يشارك محمد غضب الشارع السوري ضدّ النظام في بلدته قدسيا، الواقعة بالقرب من مساكن الحرس الجمهوري، سوى مرة واحدة. كان يشعر بأنّه مقيّد الإرادة لأنّه الابن الوحيد والمُعيل لوالدين مُسنَّين.

كان ضميره يؤنّبه لعدم قوله «لا» للنظام، فقرّر في أحد الأيام أن يكسر تلك القيود ويهتف ضدّ النظام في مظاهرة مسائيّة كانت تعبر أمام مطعم الحلويات الذي يعمل فيه. أطلق الكلمات التي تطالب بالحريّة في الهواء. محمد لم يكن يدرك أنّ تلك الجريمة ستكون مظاهرته الأولى والأخيرة. اُعتقل محمد في صباح اليوم التالي من قبل سريّة مداهمة واُقتيد إلى هذا الفرع الأمني.

حُقِّق معه مرة واحدة واعترف «من ثاني كرباج على ظهره». لم يكن يريد إطالة غيابه عن والديه. محمد شخص «درويش وحباب وناعم»، مدلّل البيت. كان يرفض الزواج ويفضل البقاء في البيت تحت كنف والديه.

«محمد، أنت بتعرف وين نحنا؟؟» سألته. «أي بعرف، بس مافيني قلّك، لأنّو هاد خطر كبير كتير، طبعاً معرفتي هي احتمال.. بس احتمال كبير كتير» أجابني. تشبّث بكلامه الرافض بإخباري عن موقعنا، لم أكترث له بعد ذلك ولم أعد أكلّمه.

أنا في مكاني أُفكر كرجل يحملُ جبالاً من الهموم على كتفيه. أتى محمد في المساء وقال بشكل خاطف في أذني: «نحنا بمركز الدفاع الوطني، بالجبال التابعة للجيش، بمنطقة القصر الجمهوري، بس كرمى للّه لا تخبّر حدا»، ثم عاد إلى مكانه.

فزعت وخفت، أمعنت النظر في عينيه، بعد ثوانٍ ابتسمت.. حلّقت روحي فرحاً. أخيراً.. عرفت أين نحن.

## اليوم الثامن عشر

بدأت عاصفة شوق تعصف في أعماقي. حدّثتُ محمد عن ذلك. أبدى تعاطفه معي: «إن كنت تريد الهناء في كنف هذا التعذيب، لا تفكّر بعائلتك أبداً، هذا يزيد من معاناة المُعتقل، تصبح الثواني كالسنين في هذا القبر. إن بقيت في هذا الشوق سيكون مصيرك الجنون، كثيرٌ من المعتقلين أصابتهم أمراض جنونيّة هنا. في المهجع المجاور لنا كتب بمغلفات الجبنة الفضيّة عبارات مثل: لسوف أعود يا أمي/ أمي يا نبع الحنان/ اشتقتلك يامو/ يامو يا ست الحبايب. كانت هذه الجمل تقتلني كلّما مرّت عيوني عليها. بقيت على هذه الحال إلى أن أخبرني أحدهم بأنّ عليّ نسيان العالم الخارجي وأن أقبل الواقع هنا، كأنّني ولدت في هذا القبر. كأنّني لا أعرف شيئاً غير السجن».

حاولت النسيان، شعرت براحة نسبيّة. أقفلت الباب في هذا اليوم على كلّ شيء يتعلق بعائلتي، بحبيبتي، وبعالمي الخاص الذي أطير إليه أحياناً.

التقيت، في خيالي، للمرة الأخيرة بحبيبتي وتجولنا في أزقة الشام القديمة الضيقة. أشعلنا شمعتين في كنيسة السيدة العذراء في صيدنايا. دخلنا الجامع الأموي وصلّينا. شربنا عصيراً لدى «أبو شاكر» في

الصالحيّة. احتسينا شراب التمر الهندي في سوق الحميدية. أكلنا بوظة بكداش. ذهبنا إلى حديقة السبكي وإلى حديقة الجاحظ. ذهبنا إلى ضفاف نبع الفيجة وشربنا من تلك المياه الطيبة. لم أنسَ تلك الهضاب والجبال المجاورة، قطفت التفاح من بساتينها. سرقت بعض الياسمين. ذهبنا إلى قمة جبل قاسيون. تطّيّبنا بمسك وعنبر الشام.

زرت أهلي. تقاسمت الشاورما مع أولاد أختي الكبيرة «أمي الثانية». لعبت كرة القدم مع خالي يوسف في القامشلي. التقيت جدتي، أم أمي، صاحبة المئة عام. زرت قبر جدتي الأخرى. تناولت ثمار التوت من شجرة بيتها.

ودّعتُ الجميع ونمت.

## اليوم التاسع عشر

أصلي الظهر وأنا أسمع صرخات المعتقلين في الفرع والجلادون يتناوبون على تعذيبهم. سماع تلك الأصوات وذلك البكاء غدا جزءاً من حياتي. أتضرّع إلى الله، أجول بنظري في المهجع، يجذبني شخص جالس في الجهة البعيدة عني بغمزة من عينيه. لم أخذل رغبته في الثرثرة. أذهب إليه وأخوض معه حديثاً تعارفياً.

لم تمض سوى دقائق قصيرة على محادثتنا حتى دقَّ السجّان الباب الحديدي بضربتين. لجأنا إلى الحركة الروتينيّة بسرعة صاعقة. تمكنت في تلك المدة الزمنيّة القصيرة نسبياً من أن أجمع معلومات بدائيّة عن ذلك الشخص.

اسمه «أبو منذر» وينحدر من حي ركن الدين الدمشقي، مُعتقل مع أخيه ذي التاسعة والخمسين عاماً، لم يبدأ استجوابهم حتى الآن. أستطيع القول إنّ حديثي معه قد زوّدني بمعلومات شحيحة لكن لا بأس بها.

أمرنا السجّان بالبقاء جالسين على ركبنا، خافضي الرؤوس، متشابكي الأيدي من الخلف، إلى أن يأتي أحد الضباط.

خيّل إليّ أنّ الضابط سيأتي بعقابٍ جديدٍ. جسدي أصبح شبه معافى

من الألم، لكن يبدو أنّ عذاباً جماعياً جديداً ينتظرنا. يأتي الضابط بعد مرور وقت بسيط، يقول بصوت أجشّ: «بدّي قول أسماء تنين وعشرين عرصا، العرصا الّي بيطلع اسمه بيرفع إيده وبيقول حاضر، بيجيب غراضه وبيصف بالزاوية عاليمين».

قام الضابط بتلاوة الأسماء. يا للفرحة فقد قال أسماءنا، أنا وأصدقائي راكان وزهير. رفعنا أيدينا، لم يكن معي شيء آخذه معي.

في تلك اللحظة، وأنا بجانب أصدقائي عند الحائط اليميني، أصابني شعور بالفرح، تسلّل الابتهاج إلى قلبي. نحن نخطو الآن خطوة إلى الحريّة. سيصبح هذا الفرع من الذكريات. الآن سيتم نقلنا إلى مكان آخر. أبدأ الغوص في أحلامي. سأقابل ياسمين قبل كلّ شيء، سأرتمي في حضنها وأبكي.... وأبكي...

بعد ذلك سأذهب إلى منزلي وأقابل عائلتي. سأمشي في شوارع حيّنا. سأدخن سيجارة مع القهوة على سطح منزلنا وسأحكي للقمر عن كلّ شيء.

بعد أن اكتمل العدد، جرى إخراجنا من المهجع دون ربط العيون، قمنا بالاصطفاف بعضنا خلف بعض في الخارج، إلى تلك اللحظة كنت مغلق العينين. أشعة الشمس تلامس جسدي. كان السجّانون منشغلين بالمعتقلين الآخرين حين حاولت فتح عيني وأنا خافض الرأس دون أن يراني أحدٌ. تجرأت على ذلك. فتحت عينيّ.... في أقل من ثانية أغلقتها. لا، ليس جُبناً بل شعورٌ بالألم في العينين. لقد كانت أشعة الشمس الساقطة على البلاط في الممر كالسهام المحمّلة بكتلٍ ناريّة في رأسها وهي تخترق الحواجب والرموش.

أتى ثلاثة سجانين، صفعوا كلّ واحدٍ منّا كفاً «عالماشي». قال

الضابط: «أدخِلوا هؤلاء إلى المهجع المجاور بسرعة». هذه الجملة بخّرت أحلامي. قاربنا ما زال في عرض البحر ورحلتنا ما زالت في بدايتها ولا شاطئ قريباً ترسو فيه قواربنا.

أُدخِلنا إلى المهجع المجاور لمهجعنا القديم، كان شبه خاوٍ، ربما نُقل الكثير من المعتقلين، الذين كانوا هنا، مع براء والآخرين، إلى مكان آخر.

أحصيت أعدادنا، نحن ثلاثة وعشرون مُعتقلاً فقط. أُلقي بجسدي في وسط المهجع، المساحة كافيةٌ الآن لأفعل ذلك. أبقى مستلقياً، أفكر في صديقي جورج. لم أعانقه. لم أودّعه. اللعنة ثم اللعنة أريد عزلة أبديّة عن هذا العالم. أريد الموت. أريد الانتحار. أريد الهرب. الحق أقول لكم، لو لم أكن قد تقربت لله بهذه الدرجة التي أنا الآن فيها هنا، لكنت قد ضربت رأسي بهذه الجدران السميكة حتى ينهرس هذا الرأس بما فيه من الأفكار والآلام والأوجاع.

بعد ساعات شكوت همّي إلى راكان. قلت له بأنّني أشعر بالغربة في هذا المهجع الجديد على الرغم من أنّ التصميم مشابه لمهجعنا القديم، حتى الثقب في منتصف النافذة المشبكة موجود. أشتاق إلى مهجعنا القديم، لقد تعودتُ على تلك الوجوه، كان لي مجتمع، بيئة، أشخاص أثرثر معهم. أشعر أنّ الدقائق هنا لا ترحم، تسير بشكل بطيء، أبطأ من البطء، أحسّ بأنّ ناراً تلهب جسدي، تنهك جوارحي.

مع مرور الوقت بدأنا ننام بطريقة التسييف لضيق المساحة فقد جرى إدخال معتقلين آخرين كُثر، من بينهم طفل صغير ذو شعر أسود وسمار جميل.

## اليوم العشرون

أحاول الخروج من نوبة الاكتئاب للتعرّف على قصة ذلك الطفل الذي دخل إلى هنا برفقة أخيه.

اسم الفتى ماجد وعمره ثلاث عشرة سنة، وأخوه الأكبر سامر وعمره سبعة وعشرون عاماً. اعتقل ماجد مع أخيه الكبير عند أحد الحواجز المنتشرة في المدينة، وأدخل مع أخيه، معصوب العينين ومربوط اليدين من الخلف إلى غرفة التحقيق، لكنه لم يُعذّب إنّما أُرهب عن طريق صوت السوط وهو يلامس جسد أخيه الكبير.

اعترف سامر بمساعدته للجيش الحرّ في جمع معلومات عن مواقع الحواجز المنتشرة في مناطق محددة من الريف الدمشقي، وعن أعداد عساكر الجيش النظامي على هذه الحواجز، لكن ذلك الاعتراف لم يُرضِ المحقق الذي كان يكرّر قوله: «يالله، قُلّي... كم واحد قاتل، دابح، وكم وحدة مغتصب؟».

بعد تحقيقات عديدة وعده المحقق بالأمان وبإطلاق سراحه مع أخيه الصغير في حال اعترافه بالذبح والقتل والاغتصاب والظهور على التلفزيون السوري. أخيراً وبعد أن أنهكه الأرق اعترف بما يرغب به المحقق مع علمه بأنّ المحقق يكذب وأنّه سيواجه مصيراً مجهولاً.

بعد أن اعترف وجرى تصويره، قيل له بأنّه سيُنقل إلى فرع آخر وسيتم الاحتفاظ بأخيه في هذا الفرع حتى يسلّم ستة أفراد من الجيش الحر، من بلدتهم، أنفسهم. يقول سامر: «ألم حاد يوجد في أعماقي بسبب أخي الصغير لأنّه سيبقى هنا سنوات طويلة. أيّ عاقل سيسلم نفسه لهذه المخابرات؟ سلّمت شأن أخي لله».

أقاموا في المنفردة لمدة شهر ثم تمّ نقلهم إلى مهجعنا هذا. المنفردات يمكن وصفها بسهولة. هناك لا يوجد مكان لضوء أو لبقعة شمس، هناك مسكنُ الحشرات والقمل والجرذان والعناكب. المنفردة هي مسكن للهموم وللآهات.

قال لي سامر إنّ معظم المعتقلين في المنفردات هم من أفراد الجيش الحر. أفراد تمّ اعتقالهم في المعارك أو في الكمائن. يضعون أكثر من شخص في المنفردة أحياناً. «في إحدى المرات أُدخل إلى منفردتي مقاتل من الحر، كان مصاباً بطلق ناري في القدم اليسرى، كانت قدمه ملفوفة ببعض الأقمشة. بقي في هذه المنفردة نصف ساعة ثمّ أُخذ إلى منفردة أخرى».

قال لي أيضاً إن أفراد الجيش الحرّ كانوا يُعذَبون أضعاف عذابنا في التحقيق. كان الكثير منهم يُعدم رمياً بالرصاص. «كنت أسمع، خاصة في الليل، طلقات متقطعة بالقرب من المنفردات بعد أن يتم أخذ أشخاص منها، هي في الغالب إعدامات ميدانيّة» يقول سامر بصوت منخفض يُسمع بصعوبة.

كان يحدثني، أمام أخيه الصغير، بكلّ طلاقة عن الأعمال الوحشيّة للنظام، كنت أحدق في عينيه وأشير إلى الطفل كي لا يتعمق في الوصف. يلاحظ ماجد حركاتي ويبتسم قائلاً: «دعه يتكلم، كنت أبكي في البدايّة، لكن هذه الأشياء أصبحت الآن أمراً عادياً».

## اليوم الحادي والعشرون

في هذا اليوم وأثناء وجبة الفطور أخبرت راكان أنّني لن أضع طعاماً في فمي بعد اليوم. إضراب حتى الموت. لا طعام ولا شراب، اليأس من هذه المظالم والعذاب النفسي يقتلنا في اليوم آلاف المرات، أريد أن أختصر كلّ هذا الموت بموتٍ واحد.

إني أرى في الإضراب الحياة، أريد أن أحيا عن طريق هذا الموت، أن أبعث من هذا القبر. حاول راكان مرات عديدة إقناعي بأنّ الإضراب سيؤدي بي إلى الموت وأنّ ذلك بمثابة الانتحار وقتل النفس. خالفته في الرأي وأصررت على الاستمرار في إضرابي.

تُستأنف التحقيقات ويبدأ الروتين اليومي، أوزع بعض النظرات في أرجاء المهجع بقصد التعرف على قصص أخرى قبل رحيلي عن هذا القبر. بعد وقت قصير أزور شخصاً يجلس عند الجدار الأيسر، أتعرف عليه.

اسمه عبد الجليل، وعلى جبهته بقعة يميل لونها إلى السواد لكنها ليست قاتمة، له ذقن صغيرة (سكسوكة) كثيفة الشعر، جسده نحيل وشعره طويل. في البداية اعتقدت أنّه إسلامي، خاصة بوجود تلك البقعة على جبهته لكن سرعان ما تلاشى هذا الاعتقاد.

عبد الجليل ينحدر من عائلة غنيّة، يملك مزرعتين، أحصنة وسيارتين، متزوج وله طفلان. في يوم من الأيام يتصل أحد ما به ويأمره بجلب فدية قدرها مليون ونصف المليون ليرة سوريّة كي يُطلق سراح أخيه المخطوف. أتى بالمال وقاد السيارة، مع ابن خالته، إلى العنوان المحدد. نزل من السيارة قبل أن يصل إلى النقطة المحددة وأبقى ابن خالته فيها، مشى قرابة اثنين كيلومتر سيراً على الأقدام حتى بلغ العنوان.

سلّم الحقيبة وأُطلق سراح الأخ. طلبوا من الأخ الذهاب إلى البيت دون عبد الجليل، رفض في البداية، لكن عبد الجليل ضغط عليه حتى ذهب. بعد دقائق من ذلك وجد عبد الجليل نفسه محاطاً بسيارات الشبيحة والجيش، اعتقلوه وأتوا به إلى هنا.

عُذّب ست وثلاثين مرة حتى الآن. هو هنا منذ مئة وسبعة وثمانين يوماً. اعترف عبد الجليل بتهمة تمويل التنسيقيات لدعم العائلات النازحة، كما اعترف بإمداد بعض الأطباء بالمال لشراء الأدوية لعناصر الجيش الحرّ، وهو ما كان يفعله حقاً، لكنه اعترف أيضاً بتهمة باطلة بعد اشتداد التعذيب، فقد أقرّ بأنّه كان يشتري السلاح «للإرهابيين».

ونحن نتبادل الثرثرة الخافتة أرى الجدار الممتلئ بعبارات الشوق إلى الأم. تذكرت محمد الذي حدثني عن هذه العبارات التي كانت تعذبه. ماهي إلا ثوان قليلة حتى سحبت نظري من هناك، لم أكترث.

يُدق الباب، قرابة العصر، من قبل السجّان جالباً وجبة الغداء، لم أبال. جرى توزيع الطعام. الجميع يأكل إلا أنا. بدأ راكان بإكراهي على تناول الوجبة كي لا أتركه وحيداً مع أخيه و«أموت». بعد محاولات عديدة تنازلت عن إضرابي القصير على مضض.

## اليوم الثاني والعشرون

ساكن في موضعي كسكون الليل، كأنّ حواسي في إجازة. أتخيّل فتاة جميلة، شديدة البياض، إنّها فتاتي. أتشبّث بيديها. تُخرج من جيبها وردة حمراء، تعطيني إياها، تهمس في أذني: «اشتقتلّك كتير، لا تحكي شي، تعال، امسك إيدي وامشي معي».

أبتسم، نمشي، نلاحق ظلالنا، نسير في حارات منطقتنا، نصل إلى قمة جبل قريب، نجلس، أرتمي في حضنها، أغني أغنية «اشتقتلّك قدّ الدّنِي»، أداعب شعرها، أنظر إلى وجهها وألمسه بأصابعي، أحدّق في عينيها وأقرأ فيها آيات الحب والاشتياق. فجأة أسمع صوت فحيح أفعى، ألتفت باتجاه الصوت، إنّها أفعى كوبرا، نقف، أنا وياسمين، أحمل غصناً من الشجيرة التي كنّا نحتمي بها من حرّ الصيف، تقترب الأفعى أكثر فأكثر، أضربها بالغصن، لم أُصِبْها، تقترب منّا أكثر، تهجم لتلدغ... أستيقظُ.

لم أتحرّك من مكاني لدقائق طويلة. فرحت لرؤيتي حبيبتي في الحلم، أخيراً أحسست أنّني لمست وجهها. أذهبُ إلى عبد الجليل وأقصّ عليه رؤياي. قال: «الأفعى تجسّد أعدائك، هناك أعداء يريدون أذيّتكما أو فصلكما أحدكما عن الآخر». أعود إلى مكاني، أفكّر، أعداء؟ من هم؟

أصلّي الفجر. أنام.. علّي أرى ياسمين مرّة أخرى.

نمتُ حتى الظهر. كنت أستيقظ بفعل الضربات على الباب وشحط المعتقلين إلى التحقيق، ثم أنام وهكذا حتى الظهر.

لم أستطع، وللأسف، لقاء حبيبتي مرة أخرى. كنت فقط أريد رؤيتها علّ الحب يروّض جنون روحي قليلاً، علّ وجهها يلملم أجزائي المبعثرة كزجاج مكسور. لا أستطيع نسيان العالم الخارجي، عالقٌ أنا في دوّامة الشوق إلى ياسمين.

## اليوم الثالث والعشرون

أنتبه اليوم إلى أنّ معظم المعتقلين في هذا المهجع هم من غير المرقّمين، ما يعني أنّنا، جميعاً، تابعون إلى الطرف الآخر من التحقيق، وهو الطرف المشهود بوحشيّته وهمجيّته.

بعد وجبة الفطور استقبلت غرف التحقيق الكثير من المعتقلين. لم يُعذّب أيّ أحد اليوم. كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها المعتقلين يرجعون من التحقيق والابتسامة مرسومة على وجوههم.

رغم أنّني لم أستوعب المشهد إلا أنّني ممتنٌّ لتلك اللحظة. ابتسمت أنا أيضاً ابتسامة كانت قد هجرت وجهي نتيجة تغيير المهجع الذي فُرض عليّ قبل أيام. لا أعرف كيف استطاعت تلك الابتسامة أن ترتسم على وجهي، لكن لا بدّ لي من أن أثني على شجاعتها في عودتها لمقاومة الظروف.

كانت قصة التحقيق كالآتي: نُصح كلّ معتقل، في بداية التحقيق، بأن يعترف بالتهم الموجهة إليه من قتلٍ وذبح، لأنّ بشار الأسد سوف يصدر عفواً عن المعتقلين كافة خلال أيام، فإذا اعترف المعتقل بالتهمة الموجّهة إليّه فسيشمله العفو، وإن لم يعترف فسيبقى هنا. اعترف الجميع طواعيّة دون أيّ شكل من أشكال التعذيب، لقد صدّقوا المحقق.

على الصعيد الشخصي تفاءلت بهذه المبادرة.. تمنّيتُ لو أنّ العفو يشملنا أيضاً على الرغم من أنّه لم يبدأ استدعاؤنا إلى التحقيق حتى الآن.

## اليوم السادس والعشرون

يوم الميعاد. يومُ فكّ أسرنا، يوم العفو كما قال الضبّاط. لم ينم أحدٌ منّا. كان حلم الحريّة يدغدغ مشاعرنا وأفكارنا. أفكر بأنّ أحداً لم يعذَّب خلال الأيام الثلاثة الماضية.

بعد صلاة الفجر رتّلتُ بعض الآيات القرآنيّة القصيرة. سبّحت الله حتى وقت الإفطار. أكلنا طعامنا بترقّب. لم يُستدعَ أحدٌ باستثناء رجل واحد. يأتينا هذا الرجل ببشرى من العيار الثقيل. يقول إنّ المحقق قد وكَلَه إخبارنا أن نستعدّ لإطلاق سراحنا قبل غروب الشمس.

تزداد الفرحة في قلوبنا. نتبادل القبلات على الخدّين، نبارك بعضنا البعض. هذه المرّة لا نفاق، لا تعذيب نفسيّ، إنّه عفوٌ عن حقّ.

يقضي المعتقلون الساعات الأخيرة بالحديث بعضهم مع بعض. أذهبُ إلى عبد الجليل، يقول لي: «ما رح تروح على أيّ مطرح قبل ما نروح لعندي ع البيت، بدي آخدك أنت ورفقاتك وبعدا بنروح بناكل كباب ومشاوي وفرّوج بروستد وكلّ شي».

نتحدث عن الأيام القادمة والمشاريع والأحلام التي تنتظرنا. أزاح عبد الجليل الستار عن كثير من خفاياه، لم يكن يصلّي أو يصوم في حياته السابقة، كان يحتسي الكحول ويخون زوجته في إيطاليا أثناء

إجازته هناك، لكن بعد اعتقاله تحوّل إلى شخص آخر، مثلي، يؤدّي الصلاة ويرتّل القرآن ويسبّح باسم الله.

أصلي العصر وأنا متيقن أنّها آخر صلاة لي في هذا الفرع الأمني. أمعن النظر في تفاصيل المهجع، أتذكر وجوه زملاء المهجع السابق. كم كان وجودهم معي في هذه اللحظات سيزيد من فرحي!

مضى الوقت ولم يُفتح الباب الحديدي. كلّ العيون متجهة إلى هذا الباب الذي يفصلنا عن الحياة، ينظر كلٌّ منّا إلى وجوه الآخرين بانتظار إجابات معلّقة. تغيب الشمس كما السعادة التي كنّا نحسّ بها. كان المحقق يكذب علينا. بدأ بعض الرجال بالبكاء، آخرون يضربون رؤوسهم بالجدران السميكة. لا أبكي، أشعر بالقمل ينهش جسدي. روحي ممزّقة، أخاف من التفكير بالانتقام منهم، لا أريد أن أصير وحشاً. إنّني أحترق من الداخل.

## اليوم السابع والعشرون

أصلي الفجر رغم الاكتئاب الذي لا يفارقني. بعد عودتي من رحلة خشوع أبدأ بالتسابيح. يقول لي زهير: «كنت عم تسبّح الله وأنت نائم، شفتك بعيني» أهزّ رأسي وأتابع التسبيح.

أراقب البقعة الشمسيّة وهي تعلو الجدار، أتوقّف عن ذكر الله، فكرة ما تدور في رأسي. أسرد في سرّي همومي وهموم المعتقلين لبقعة الشمس تلك. إنّ سرد الهموم يقضي على الاكتئاب رويداً رويداً، هذه نظريتي الجديدة. ذلك السرد يشبه الأنبوب التنفسي الذي يغذّي الدماء بالأوكسجين في الحالات الطارئة.

بعد طعام الإفطار عاد الروتين اليومي إلى ما كان عليه؛ صوت صرخات، صعقات كهربائيّة، بكاء، صوت سيط الكرباج... الخ.

استُدعي عدّة معتقلين من مهجعنا وسط أصوات الصرخات. تنقلهم السيارة إلى الطرف الآخر حيث يعذَبون ولا نسمع أصواتهم.

أقرّر الحديث إلى رجلٍ ذي شعرٍ شائب: «عمّو... أيمتا رح نطلع من هون؟ والله تعبت».

«بيفرجها ربّك» أجاب مبتسماً.

لون عيني الرجل الأخضر يشدّني، اسمه «أبو أمجد»، وهو من

مدينة داريا في ريف دمشق المتاخمة للقصر الجمهوري. شاربه كثيف ملتفّ، وحين يتحدّث يجعلك تشعر بشهامته ونخوته.

تهمته هي تمويل الجيش الحر في بلدته، إضافةً إلى وجود مقاتلين من أقربائه يقاتلون النظام. لم يعترف بتهمته بعد: «لن أعترف، أعرف أنّني سأموت بكلتا الحالتين. الموت بكرامة... هذا اختياري».

كلماته الثوريّة أزاحت عني بعض الاكتئاب. لقد أثارت شخصيته القويّة اهتمامي. ثرثرت معه قليلاً ثم عدت إلى موضعي.

عاد المعتقلون، الذين أُخذوا في الصباح. إلى المهجع، أجسادهم منهارة من شدّة التعذيب. هذا يعني أنّ آلة التعذيب عادت للعمل من جديد بعد أن توقّفت لبضعة أيام.

غابت الشمس وحلّ الظلام من جديد. أقوم للوضوء، يهمس أحدهم خلفي: «معلّم.. وضوءك غلط... مو هيك الوضوء». «بربّك غلط!؟» أقول وأنا أضحك.

تُضحكني الفكرة، تهمتي أنّني إرهابي سلفي لكنني لا أجيد الوضوء. علّمني هذا الشخص الوضوء السليم والسلسلة التي يتوجب اتباعها.

بعد الصلاة أشنّ حملة تطهير ضد القمل، أنزع عن نفسي ثيابي وأعلن الحرب على هذا القمل. إنّها حرب كرّ وفرّ.

في بداية الليل نسمع صوت سيارة تتوقف. يُطرق على الباب بشكل مفاجئ، نقوم بالحركة الروتينيّة. يُدخل شخص جديد إلى المهجع، يُغلق الباب. أستدير إلى الخلف لأرى القادم الجديد وإذ به شخصٌ من «حارتي». إنّه والد صديقي المعتقل والمفقود منذ شهور. أُخبرُ رئيس المهجع بمعرفتي بالمعتقل الجديد فيضعه بجانبي. لا أكلّمه، فقط أبادله النظرات.

## اليوم التاسع والعشرون

أتحدّث مع والد صديقي عن والدَيّ اللذين أصبحا جزءاً من ماضٍ متجمّد في ذاكرتي. عبّر عن سعادته لرؤيتنا أحياء. «الكلّ يعتقد أنكم قد استشهدتم تحت التعذيب في الأيام الأولى، سوى والدتك ـ وأشار إليّ ـ لا تزال تؤمن بأنّك على قيد الحياة» قال لنا.

لم أستغرب. أمي أتذكّرها. أعرفها جيداً، حتى وإن رأتني بعينيها المجردتَين شهيداً يُزفّ في وسط الحيّ، لن تصدّق.

قال الرجل إنّ والدي دفع الكثير من المال للضباط ولرجال المخابرات الفاسدين، وما زال، كي يطمئنّ على ابنه ويعرف مكان وجوده، أو على الأقل ليعرف إن كان ابنه على قيد الحياة. غضبت حين عرفت هذا. أبي يعرف أن لا جدوى من ذلك. أعرف والدي، يريد أن يريّح ضميره، أن يفعل أيّ شيء لأجلنا.

والد صديقي، أبو آمد، كان يخرج من مسجد الحيّ، بعد أن صلّى صلاة الجماعة هناك، حين رنّ هاتفه الجوال. استدعاه الضابط المسؤول عن حاجز منطقتنا. كان أبو آمد في ذلك الوقت يستعدّ للسفر إلى الشمال السوري مع عائلته.

توجّه إلى هناك رغم نصائح رجال الحيّ له بالاختباء. أخبره

الضابط أنّ هناك تقريراً أمنياً عنه، لكن، إن دفع مليون ليرة سوريّة سيمزق التقرير وكأنّه لم يكن.

«لا أعرف شيئاً عن التقرير ولا عن محتواه، لكنني أقسم بعظمة الإله أنّني لم أرتكب شيئاً ضد النظام» قال أبو آمد. «لا يهمّني إن ارتكبت أم لا. ادفع مليون ليرة وسوف أطلق سراحك الآن وكأن شيئاً لم يكن» قال الضابط. « لا أملك الكثير من المال، كلّ ما ملكته دفعته للحصول على أخبار عن ابني..... سأعطيك بيتي بدلاً عن المال إن قبلت» عرض أبو آمد. أجاب الضابط: «مممم. أنت مصرٌّ إذاً على إنهاء حياتك. لقد فهمتك الآن، لا تجادلني أكثر، لقد حكمت على نفسك بالموت. نقطة انتهى».

جُلِب أبو آمد إلى مقبرتنا هذه.

## اليوم الثلاثون

شهرٌ كامل انقضى ونحن نعيش كالموتى، شهر كامل مرّ على الغياب. اليوم عمري سبع عشرة سنة وشهرٌ وأربعة عشر يوماً. لماذا يفعل الله بي هذا؟ ألا تكفيه كلّ هذه الصلوات والدعوات؟ لماذا لا يُطلق سراحي؟ أين معجزاته؟ ألا يحقّ لي المطالبة بالإجابة عن تلك الأسئلة؟

انتفاضة في صدري. أثور في داخلي على كلّ شيء، لكنني أقمع كلّ هذا، أستبدُ بمشاعري كطاغية يستعبد شعباً.

أصلي العصر. تنتهي التحقيقات في هذا اليوم. أفكر في جورج محمد. أشتاق إليه بحرقة. أشتاق لكلماته ولنكاته الظريفة. أفتقده حين كان يقول لي: «أهلين بالمراهق السياسي». فجأة يقترب مني شخصٌ جاحظ العينين وينتحب أمامي: «كرمى للّه، إيمتا طالعين، ياموووو أنا عم أختنق، أنا شكلي شكل إرهابي وقاتل ودابح ومغتصب؟» كان يبكي كما طفل ضربته معلّمته في المدرسة.

أحاول مواساته. أحاول أن أقول له أين نحن، رغم الخطر الذي قد أتعرّض له. كان يائساً. سألني عما إن كانت عائلته بصحة جيدة أم لا، وكأنّني أعلم الغيب.

أستفسر من عبد الجليل عن الرجل، فيقول لي إنّ بعضاً من الجنون قد أصابه. لقد عُذِّب كثيراً في المهجع السابق، اعترف بتهمته لكن الجنون كان أسرع من الاعتراف.

بعد مرور الساعات ورحيل بقعة الشمس، وبعد أداء صلاتي المغرب والعشاء، وبعد معاقبة بعض الأشخاص ـ كما كلّ يوم ـ بسبب صوتهم العالي، غبتُ في نوم عميق.

## اليوم الحادي والثلاثون

لا بدّ من طريقة تقودنا إلى التحقيق. التحقيق هو المنفذ الوحيد الذي سنمرُّ به في طريقنا إلى الحريّة، رغم أنّ خطر الموت أثناء التحقيق كبير. أسألُ عبد الجليل فيشير إلى مجموعة تتوسط المهجع، هؤلاء يمكن أن يساعدوا. في البداية كانوا على علاقة سيئة بالمحقّق، ثم تحسّنت علاقتهم به نسبياً بعد أن اعترفوا بتهمهم، على حسب ما قال أحدهم لعبد الجليل مرّة.

أذهبُ إلى الشخص الذي كان قد حدّث عبد الجليل وأبادله القليل من الثرثرة. هذه المجموعة مؤلفة من خمسة أشخاص، جميعهم من منطقة إدلب في الشمال، تتراوح أعمارهم بين تسع عشرة واثنتين وثلاثين سنة، ينتمون إلى «جيش الدفاع الوطني»، هذا الجيش الذي يجمع تحت مظلّته ميليشيات شعبيّة مؤيّدة للنظام السوري جرى تسليحها.

اعتُقل مصلح، الشخص الذي أثرثر معه، بداية الأمر وحده بتهمة المشاركة في ارتكاب مجزرة جسر الشغور، التي راح ضحيتها الكثير من العسكريين السوريين، رفض مصلح ذلك الاتهام مدافعاً عن نفسه ببطولاته في كسح «الإرهابيين»، يقصد الجيش الحر، إلا أنّ ذلك لم يشفع له. أدرك في وقت لاحق من اعتقاله أنّ عدة أشخاص، من رفاقه

في الجيش، يقفون وراء ذلك التحرك لاستبعاده ولتحقيق نوايا شخصيّة في المراتب. راودته أفكار شيطانيّة في أن يلقي بأولئك الأشخاص في الحفرة نفسها. فقال للمحقق إنّه يعرف أشخاصاً آخرين من مرتكبي المجزرة. بعد ذلك اعتُقل الأشخاص الأربعة الآخرون في إدلب، واعترفوا تحت التعذيب بكلّ ما قاله مصلح. هم الآن يتشاركون المساحة نفسها، لكنهم لا يتحدثون ولا يتعاملون في ما بينهم أبداً.

أبلغته مناشدتي في أن يذكر أسماءنا، أنا وأصدقائي، أمام المحقق بأيّ شكل كان. نريد أن نخرج من هنا.

في منتصف الليل تقريباً، كان معظمنا نائماً، ضُرب على الباب، لجأنا إلى الحركة الروتينيّة، جرى إدخال أشخاص. حدّثهم أحد السجّانين بالإنكليزيّة وبلطف: «هل ترى هؤلاء الأشخاص؟... كلّهم إرهابيون... الأفضل لكم أن لا تتحدثوا إليهم، سوف يؤذونكم.. وربما يقتلونكم». ثم أغلق الباب ورحل.

ألقيت نظرة سريعة عليهم، لقد كانوا شخصين، أحدهما يبدو صغيراً في العمر والآخر في بداية الخمسينيات من عمره، على ما أظن.

يا له من سجّان حقير، يحدّث هؤلاء الأجانب بلطف ويعذّبنا نحن المحليين. عدت إلى نومي مرة أخرى لكن السجّان أيقظنا بضربات على الباب وهو يرمي بشخص آخر إلى هذا المهجع. كان هذا الشخص عبارة عن ثلاثة أرباع جثة، جروحه مفتوحة. معظم هذه الجروح موجودة على الظهر وتبدو كأنّها ثقبت عن عمد، لقد كان القيح يملأ ذراعيه. كان يتلفّظ بكلمات مشوشة. أتى رئيس المهجع ببعض الأدويّة الأوليّة كالمطهّر وقطع من القماش. بعد عدة دقائق من ذلك هدأ الدم قليلاً.

أرتمي في موضعي. أتنفّس بعمق. أنام.

## اليوم الثالث والثلاثون

كان الفضول مستحوذاً علي. كنت أريد أن أعرف لمَ جاء السجّان بهذين الأجنبيين إلى هنا.

ذهبت إلى الشاب وحدّثته إنكليزيّة مكسّرة، انقبضت ملامحه وتملّكه الخوف في البداية، ظنّاً منه ربما أنّني أرغب في قتله، كما زعم السجّان، لكن حاجز الخوف سرعان ما كُسر.

يباشرُ الثرثرة بإنكليزيّة يتقنها. لا أفهم كلّ ما يقول، أهزّ برأسي، لا أقاطعه، أمنحه حق الثرثرة حتى النهاية.

اسمه فرات، ألماني ينحدر من أصول تركيّة، طويل وممتلئ بعضلات متوسطة. دخل فرات إلى سوريا عن طريق أحد المعابر التركيّة السوريّة. لم يشكّ به أحد، لا قوات المعارضة ولا القوات الحكوميّة. انتهت حكايته في حمص، عاصمة الثورة، حيث اعتُقل على حاجز تابع للقوات الحكوميّة واقتيدَ إلى فرعنا هذا.

في غرفة التحقيق ادّعى أنّه كان يريد العبور إلى الأردن، وأن لا نيّة لديه في الانضمام إلى جماعات جهاديّة متطرفة في سوريا. لم يُضرب أو يُهن، فتلك الأشياء تخصّ السوريين على ما يبدو.

سألته عمّا إذا كان الرجل الآخر ألمانياً أيضاً، فأجاب بعدم معرفته.

قال: «عندما حُقّق معي كان ذلك الشخص في الغرفة، وبعد الانتهاء قاموا بجلبنا إلى هنا معاً».

بعد تلك الثرثرة القصيرة توجّهت إلى الرجل الآخر. كان ذا عينين زرقاوين وبشرة بيضاء. صحفي روماني اُعتقل في اللاذقية. حاولت جاهداً أن استنبط منه أجوبة وأخباراً، لكنه تهرّب من جميع أسئلتي.

بعد وجبة الإفطار وقبل صلاة الظهر استُدعي أبو آمد ونُقل بواسطة سيارة التحقيق. بعد ذلك بقليل استُجوِب بعض المعتقلين، ثمّ أُعيدوا في وقت لم يتجاوز الساعتين. لقد كانت أجسامهم مشوّهة بسبب التعذيب. مرّت ساعات عديدة دون أن يعود والد صديقي.

أصلي. بلغنا العصر. نودي سعيد ومصطفى، الشخصان اللذان ينحدران من دُمّر البلد، واللذان لم تثبت عليهما التهم. لقد أطلق سراحهما. آمل في أن يخبروا أهلنا، أنا وراكان، أنّنا ما زلنا على قيد الحياة.

«عُقبى للجميع يا شباب.... طالعين كلّنا عن قريب إن شاء الله»، قالها أحد المعتقلين بحسرة توقه إلى الحريّة. حاول أن يرسم بسمة أمل على وجوهنا، ونسي أنّه هو نفسه يحتاج إلى من يدفعه إلى الابتسام.

الجميل في عالمنا هذا، عالم المعتقلين، هو أنّ مقولة «فاقد الشيء لا يعطيه» تندثر وتتبخّر. المعتقلون هنا يفتقدون للكلام الملبّس بالأمل والبهجة إلا أنّهم يبتدعون الأمل والبهجة ويوزّعونه على باقي زملاء الزنزانة.

بعد خروج سعيد ومصطفى من المهجع بقليل، نسمع صوت السيارة وهي تقترب من المهجع. يُقرع الباب فنقوم بالحركة الروتينيّة. يرمي السجّان شخصاً ما إلى منتصف المهجع.

أخاف أن ألتفت. أبقى ساكناً كالصنم في موضعي. لسبب ما أخاف أن يكون ذلك الشخص هو والدي أو أن يكون شخصاً آخر من حارتي. ألتفت بتردّد. إنّه أبو آمد. أسرع إليه. إنّه ينتحب كطفل فقد للتوّ والديه.

حاله يرثى لها. بنطاله وقميصه ممزقان. نحاول، أنا وعبد الجليل، أن نقوم بنقله إلى الحمّام لنبلّله ببعض الماء. لم ننجح في حمله وحدنا. كان ثقيلاً. ساعدَنا عدد من المعتقلين الآخرين في حمله. ظهره كان مخطّطاً بالكدمات. الدماء تسيل من بعض المواضع في ظهره كنبع. حرارة جسمه مرتفعة. أخرجناه من الحمّام. بقي غارقاً في البكاء. أخلع بيجامتي وألبسه إياها. مؤخرته ورجليه أشدّ ازرقاقاً. أسأله عن سبب بكائه، فيقول: «الظلم... الظلم يا بني. اعترفت بأنّني قمت بتفجير تجمّع لقوات النظام. يااااا أمااااااه أين أنت لتري ما حلّ بابنك؟».

قمنا بإرجاعه إلى موضعه، وضع رئيس المهجع بعض المُطهِّر على جروحه. نام أبو آمد وهو يبكي.

أراقب البقعة الشمسيّة حتى تغيب. أحسدها. تدخل وتخرج دون محاسبة، ودون تضييق. أصلي صلاة المغرب.

يستيقظ أبو آمد، يبكي، يصلي. لم يستطع الوضوء، مسح البلاط بيديه ثم وضعهما على وجهه ومسح يديه وساعديه. لقد كان ساكناً. صلى واضعاً يديه إحداهما فوق الأخرى فوق بطنه. عيناه كانتا تحدقان في شعاع الضوء الوحيد في الغرفة.

صلّيت العشاء. أتى رجلٌ وجلس بالقرب مني، شعره طويل وبشرته بيضاء. عرّفني بنفسه، اسمه وليد.

«أريدك أن تعلّمني الصلاة، لكنني لن أصلّي هنا، كي لا يقال إنّني ارتميت في أحضان العبادة بسبب خوفي من المستقبل المجهول»،

طلب مني. «حسناً يا وليد سأعلمك بإذن الله، لكن دون أن يعلم أحد بذلك. أنت تعرف أن ذلك قد يقودني إلى تهمة تكوين حزب إسلامي هنا» أجبته. «لن أخبر أحداً، أعدك، ولكنني مصرّ على موقفي ولن أصلي هنا». نتحدث قليلاً ثم يرحل. أتنفس بعمق عدّة مرات ثم أنام.

## اليوم الرابع والثلاثون

أستيقظُ. أسابق شروق الشمس واقتحام تلك البقعة لمهجعنا. أقوم إلى الحمّام لأتوضأ. أسترق النظر إلى رجل نائم، لا يكسو جسده سوى بعض الثياب الداخليّة. قضيبه منتصب. «يااه نيّاله» قلت لنفسي. أراقبه. هياجه يشتدّ. يضع إبهام يده اليمنى في فمه. يمصّها. أعود إلى موضعي. أصلي.

في هذا الصباح الباكر أتعرّف على الشخص صاحب الجروح العميقة. اسمه «ناصر» من مدينة تلبيسة التابعة لمدينة حمص. أخته مختفية في أحد الفروع الأمنيّة منذ عدة شهور. والده أُعتقل قبله بأسبوعين. كلّ ذلك من أجل الضغط عليه كي يسلّم نفسه. والدته متوفية منذ سنين.

ناصر كان مطلوباً من طرف المخابرات منذ بداية الثورة، وذلك بسبب نشاطه السلمي. بعد أن تكاثرت عليه المصائب وبعد اعتقال أخته ووالده قرّر أن يحمل السلاح. قام بتأمين سيارة وهاجم أحد الحواجز القريبة من بلدته. قتل آنذاك عنصرين من الجيش وأصاب ضابطاً بجروح خطيرة، ثم سلّم ذاته طوعاً، قال لي: «لما قتلت هالكلاب حسّيت بالراحة».

تناولنا طعام الفطور، ثم بدأت التحقيقات تأخذ مجراها المعتاد حتى قرابة العصر. كان من بين المستدعين والد صديقي. أراد المحقق معاقبته لأفعال ابنه، المعتقل، ضد النظام. حين عاد أبو آمد من جلسة التحقيق كان يبكي تارة ويهدأ أخرى. لقد أعطى المحقق أسماء ثلاثة أشخاص على أنّهم شاركوا معه في تهريب المتفجرات. رفض المحقق واحداً من تلك الأسماء: «يا أخو الشرموطة هاد هو اللي كتب التقرير عنك... بدّك تعترف عليه يا ابن الحرام». لكن المحقق وافق على الاسمين الآخرين.

حسب أبو آمد فهؤلاء الثلاثة هم سبب مصائب منطقتنا، هم من كتبوا التقارير عن ابنه وعنّا وعن باقي رجال المنطقة.

أصلي العصر. أتعرّف على ثلاثة أشخاص جدد من اللاذقية. أعمارهم تتراوح بين الثالثة والعشرين والثالثة والثلاثين. كانوا يصوّرون المظاهرات ويرسلونها إلى القنوات الإخباريّة العربيّة. يعملون كشبكة إعلاميّة وقد اخترقوا عدة مواقع حكوميّة. أعداد العاملين في شبكتهم يبلغ سبعة أشخاص. الباقون موجودون في المهاجع الأخرى.

أعود إلى مكاني بعد أن شعرت بقليل من الدوار. أنام لساعات، أستيقظ، أتوضأ، أصلي، «أسيِّف» جسدي، أغيب في عالم الخيال، يطرق الباب، يُدخَل شخص جديد إلى مهجعنا باكياً، يصرخ، يصيح: «أين سارة؟! سااارة... أنا بانتظارك. اجلبي زجاجة كولا وفرّوجاً. لا تتأخري»، إنّه يهلوس بسبب التعذيب.

بعد مرور وقت لا بأس به أسمع صوت خطوات السجّان وهي تقترب. لا يضرب على أبواب المهاجع بقدميه ولا بالكرباج، كما تعوّدنا، هذه المرة يفتح الأبواب بهدوء، يدخل إلى المهاجع ويخاطب

المعتقلين بلطف. إنه أمر غريب، السجّان واللطف والتهذيب؟! هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها صوته دون صراخ وشتائم.

يفتح باب مهجعنا، يصيح رئيس مهجعنا: «أمن.. أمن» فنقوم بالحركة الروتينيّة؛ نجلس على الركبتين، أيادينا خلف ظهورنا، رؤوسنا منخفضة. يدخل السجّان إلى مهجعنا.

«غداً هو أول أيام شهر رمضان المبارك، وبمناسبة هذا الشهر يُسمح لكم بالصلاة، بإمكانكم أدائها جماعة أو بشكل منفرد. صلاة التراويح تحق لكم لكن بشرط الدعاء لسيادة الدكتور بشار حافظ الأسد، إن لم نسمع أصوات «آمين» بعد كلّ دعاء له، سوف نحرمكم من الصيام والصلاة. سوف يُجلب الطعام قبل الإفطار بقليل. من يريد تناول طعام السحور، بإمكانه التقليل من تناول وجبة الإفطار ليأكل الباقي عند السحور. بالنسبة للتحقيقات، كلّ شيء سيكون كما كان. من لا يرغب في التعرّض للتعذيب، عليه الاعتراف مباشرة، أما في ما يتعلق بالعقوبة الليليّة، التي تخصّ من لا يتحدث بصوت منخفض، فهذه العقوبة تتوقف اعتباراً من الآن. كلّ ما قلته ينطبق حتى نهاية شهر رمضان». يقفل الباب ويرحل.

يقتحم الاكتئاب مهجعنا. يملؤنا، نحن المعتقلين، المشهد بحزن عنيف. البعض ينتحب. لن أبكي. الرجال لا تبكي «البكاء لا يليق بالرجال» يقول والدي. أرغب بالبكاء، أعضّ، بقسوة، على شفتيَّ. أقاتل ضد فيض من الدموع يكاد يهزمني. أصمد. هذا أول رمضان لي هنا. لمن سوف تطبخ أمي في هذا الشهر؟ من سينهي شراب التمر الهندي في البيت إن لم أكن أنا؟ من سيقف على سطح البيت لاستنشاق روائح الطعام قبل الإفطار غيري؟ هل سأخرج من هذا القبر؟

## اليوم الخامس والثلاثون

أستيقظ في الصباح، بعد شروق الشمس. تبّاً لهذا الاكتئاب، لم أصلِّ الفجر، أقف، أتوضّأ، أصلي صلاة الفجر متأخراً ساعات عن موعدها، أرتّل آيات قرآنيّة، أدندن بالتسبيح، أحدّق في بقعة الشمس، لا أتكلم، أشكو اكتئابي إلى إله ما.

نسمع صوت سيارة قادمة، تُستدعى مجموعة اللاذقية. صلّيت الظهر في غيابهم. استُدعي عدّة أشخاص وبعد أقل من ساعتين يعودون وعليهم بعض آثار التعذيب. لقد اعترفوا بسرعة.

أصلي العصر، لم يعد أحدٌ من مجموعة اللاذقية، ربما ماتوا تحت التعذيب. أقرأ بعض الآيات التي تعلمتها هنا. نسمع صوت السيارة تقترب وبعد قليل يُفتح باب مهجعنا ويرمى أشخاص فيه. يا إلهي إنّهم هم، لم يموتوا بعد، نلتفّ حولهم، نرى رغوة الموت تخرج من فم واحد منهم، وهو مصاب بمرض القلب.

يخترق صيدلانيٌّ معتقل الكتلة البشريّة ليصل إلى المريض. يساعده البعض. يبدأ أحدهم برفع القدم اليمنى ويضع آخر قطعة قماش على إبهام القدم ثمّ يعضّها. يضغط الصيدلاني بكلتا يديه على صدر المريض. بعد وقت قصير يعود المريض إلى الحياة. بعض المعتقلين

يساعدون هؤلاء الثلاثة بالوصول إلى أماكنهم. لقد كانت سحناتهم توحي لي بأنهم عُذِّبوا بأدوات تعذيب أخرى لا نعرفها.

مع اقتراب رحيل قرص الشمس يأتي اثنان من السجّانين بالطعام. يقوم رئيس المهجع وآخرون بتوزيعه على المعتقلين، ملعقة من الحمّص ومثلثان من الجبنة ورغيف ونصف الرغيف من الخبز. نفطر، بعد أن أبلغنا أحد السجّانين بوجوب الإفطار. نصلّي المغرب جماعة ثم نصلّي صلاة التراويح. يؤمّنا رجل مسِنّ. يقف السجان أمام الباب. يراقبنا. يبدأ الرجل بالدعاء. نرفع أصواتنا «آمييين». يدعو للأسد، نرفعها أكثر وأكثر. على الجدران أن تهتز من أصواتنا، كما قال السجّان.

مرّ الوقت، صلّيت العشاء ثم الوِتر ثم صلاة قيام الليل. كنت أعرف هذين النوعين من الصلاة بالاسم فقط، لكنني تعلمتهما اليوم من أحد الأشخاص. أدندن التسابيح لبعض الوقت. أتسحّر مع أصدقائي. أقرأ سورة الفلق وسورة الناس وسورة الإخلاص. نبلغ الفجر. أصلّي. أنام.

## وتمضي الأيام

مع مرور الأيام قمت بتغيير روتيني اليومي. أبقى مستيقظاً طوال الليل، أصلي كثيراً، أنهي يوم عبادتي بصلاة الضحى وهي بعد شروق الشمس، ثم أنام لأصحو على صرير الباب، ثم أعاود النوم وأستيقظ في وقت صلاة الظهر، أنام مرة أخرى ثم أستيقظ قرابة العصر، أدندن التسبيح، أفطر.... وهكذا دواليك.

استُدعي أبو آمد مرات عديدة. كان الشخصان الآخران، اللذان بلّغ عنهما، معتقلين في مهجع آخر. كان الاثنان يتكالبان عليه في التحقيق ويقرّان بمعلومات باطلة عنه، وهو كان يرفض وبشدة تلك الاتهامات، لكن مع التعذيب الوحشي القبيح ما كان منه إلا أن اعترف بكلّ تلك التهم الباطلة التي أُلصقت به.

في هذه الأيام استطعت، وأخيراً، إقناع وليد بالصلاة في المهجع. بدأنا نصلي، أحياناً، معاً.

استُدعيت مجموعة اللاذقية مرات عديدة، وحشيّة المحقق كانت تزداد قبحاً. لقد شوّه المحقق سمعة الوحشيّة. الوحشيّة بريئة من هذا المحقق وأفعاله. كان أولئك الأشخاص الثلاثة يُستدعون يومياً، أحياناً من العصر حتى منتصف الليل، على غير عادة التحقيق. كانوا هدفاً للمحقق. يتلذّذ بصراخهم وأصوات أنينهم. في يوم من الأيام،

في منتصف الليل، عادوا إلينا مترنّحين، لا يستطيعون المشي. سمعت أحدهم يقول: «أين الله، أين المناصر للحق؟.... ليقبض ملك الموت أرواحنا... فلنذهب إلى ذلك الجحيم».

الجميع يتمنَّون الرحيل إلى الجحيم. إنّ جحيم الله ليس سوى فندقاً ذا نجومٍ خمسة مقارنة بالمكان الذي نحن فيه الآن.

نقلوا الأشخاص الأربعة الآخرين المنتمين إلى مجموعة اللاذقية إلى مهجعنا، فاكتمل عددهم هنا، سبعة أشخاص. كان أحدهم ذا ركبة منتفخة، مكسّرة، زرقاء اللون، لا يستطيع المشي على ساقه اليسرى. تبيّن لي فيما بعد أنّ ركبته قد ضُربت بالإزميل بعد أن دُقّتْ بالمطرقة. وضع رئيس المهجع أحدهم بجانب صديقي راكان، وكان في منتصف ساعده الأيمن انتفاخ مليء بالقيح.

قلت لذلك الشخص أول مرة: «السلام عليكم، ما اسمك؟»، تسلّلت دمعة من عينه وقال: «أبو محمد، لكنني لا أعلم ما إن كان محمد قد أتى إلى هذا العالم الخبيث أم لا».

أبو محمد اعتُقل وزوجته حامل في شهرها السابع. عُذّب كثيراً كباقي أصدقائه. السبب الرئيسي لتلك الوحشيّة كان توزّعهم على المهاجع. لم تكن أقوالهم تتطابق، لذلك كان التعذيب يشتدّ عليهم. اتفقوا، أخيراً، في مهجعنا هذا، على الأقوال التي سوف ينطقون بها في التحقيق.

في المعتقل، إن كنت متهماً وحيداً فهنيئاً لك، وإذا كنت متهماً تنتمي لمجموعة واعتُقلتم معاً، وكنتم في مهجع واحد فهنيئاً لك أيضاً، فهنا يمكنكم الاتفاق على أقوالكم في التحقيق. أما أن تكون منتمياً إلى مجموعة وتتوزعون على مهاجع مختلفة ولا تلتقون، فالويل لك.

## اليوم الأربعون

قبل يومين تبيّن للجميع أنّ «أبو محمد» كان قد أصيب بمرض التهاب الكبد بسبب التعذيب. نُقل إلى مستشفى عسكري، بعد أن أخبر أحد السجّانين الطبيب. لم يفرح أبو محمد لقرار نقله إلى المستشفى لأنّه كان يدرك تماماً أنّ المكان سيكون مثل ثكنة عسكريّة. قال لي قبل أن يُنقَل بدقائق: «لم أرَ محمد، أتمنّى أن أقابله في الآخرة».

قبل اعتقالي كنت قد قرأت عدة شهادات لمعتقلين عن المستشفيات التي كانوا يقيمون فيها بعد تدهور حالاتهم الصحيّة. لقد كان المعتقلون يعذَّبون من قبل الأطباء والحراس في كلّ يوم ومع كلّ مناوبة.

ذهبت في هذا اليوم إلى مصلح. ذكّرته بما قلته له في الماضي: «لا تنسانا من فضلك!». «اتطمّن!» قال. «خطرت عبالي فكرة، شو رأيك قول للمحقق، لما يحقّق معي، حكي حلو، متل إنّي بحسّه متل أبي، لأنّي بفضله عرفت الفرق بين الغلط والصح؟» سألت. «جرِّب حظّك» أجاب.

دارت هذه الفكرة في رأسي طويلاً. ليست فكرة سيئة لكنها تحتاج إلى قليل من الجرأة. أتمنى لو أتحلّى بها فقد تساعدني على امتصاص القليل من وحشيّة المحقق.

## اليوم الثاني والأربعون

في هذا اليوم استُدعيتْ مجموعة اللاذقية المكوّنة من سبعة أشخاص، كما استُدعي أيضاً طاقم مجموعة مجزرة جسر الشغور بأكمله. عادت مجموعة اللاذقية في ما بعد دون أن يُعذَّبوا كثيراً، لأنّهم ببساطة كانوا متفقين على الأقوال على نقيض التحقيقات السابقة. طال بقاء مجموعة مصلح في التحقيق. بدأت أدعو الله أن لا ينسى مصلح ذكرنا في التحقيق. قرابة العصر سمعنا صوت سيارة التحقيق، ثم جرى إدخال المجموعة إلى المهجع، كانوا يلبسون ثياباً جديدة. أدركت، كما جميع المعتقلين، أنّه قد جرى تصويرهم من قبل التلفزيون الحكومي. فور دخولهم إلى المهجع ورؤيتي لهم اتجهت صوب مصلح. «طمّنّي؟» سألت. «ذكّرتو، قال خليهن يجهزوا حالن، رح حقّق معن عن قريب» أجاب.

تصبّبت عرقاً. عدت إلى أصدقائي راكان وزهير دون أن أشكر مصلح على ذلك المعروف. كان التوتر سيّد الموقف. أكلّم أصدقائي. يرتعد جسدي دون إرادتي، كأنّني غطست في بركة ماء باردة كالصقيع.

قمنا بإعادة تأليف رواية اعترافاتنا أكثر من عشر مرات. اتفقنا على أنّني سأعترف في البداية. أعطاني أحد الأشخاص بنطالاً كي أكسو به

عريَ سيقاني، ولكي تحتمي الأرجل به قليلاً من الضربات. أكثرْنا، أنا وأصدقائي، من الصلاة والدعاء والتسبيح ودندنة الآيات القرآنيّة حتى وقت السحور. صلّينا الفجر ثم غرقنا في النوم.

## اليوم الثالث والأربعون

مرة أخرى أجد نفسي في عالم الأحلام، لكن أحلامي تغيّرت، لم تعد أحلاماً رومنسيّة أو غراميّة، بل أصبحت أحلاماً ذات صبغة إسلاميّة خاوية من لمسات الحب والغزل. أرى نفسي في أحد أحياء منطقتنا مرتدياً جلباباً أبيضاً وسط جموع من المصلّين المتراصين. أستيقظ في غفلة من أمري على صوت صرير الباب. يُستدعى معتقل إلى التحقيق، ثم يرحل السجّان. وجدت نفسي في مشهد ضبابي. تجمّدت. هل كان ذلك حلماً؟

أحدق لدقائق في بقعة الشمس، أحادثها، أنقل لها ما يدور في ذهني. هل الأحلام هي الحياة الحقيقيّة أم هذا القبر الذي نعيش فيه هو الحقيقي؟ هنا اكتشفت كذبة العالم الكبيرة. يقولون هناك في الخارج إنّ الإنسان يموت مرة واحدة ثم ينتظر يوم البعث والحشر. المُعتقَل هو الشخص الوحيد الذي يدرك حقيقة تلك الكذبة.

بعد دقائق من ثرثرتي مع بقعة الشمس أذهب إلى عبد الجليل، علَّه يأتيني بتفسير لحلمي. قال: «ربما يكون دليلاً على تمسّكك الشديد بالإسلام».

عدت إلى مكاني وأنا أشعر بفخر كبير بسبب تديّني. هدفي الآن أن

أحصل على بقعة سوداء منتصف جبيني لكثرة السجود. بقيت أدندن التسبيح، أجلّ وأبجّل الله لساعات.

موعد صلاة الظهر يقترب، راكان يتوجه نحو الحمّام من أجل الوضوء، يدوّي صوت سيارة التحقيق في أنحاء المهجع، يقترب الصوت أكثر، يمشي راكان عدة خطوات، يُدقّ على الباب، نقوم بالحركة الروتينيّة، يُفتح الباب، تُقرأ أسماء، أنا وراكان وزهير مطلوبون إلى التحقيق.

أدركت أنّ قاربنا على موعد مع رياح عاصفة وهيجان للأمواج الحاقدة. قلبي يتمرّد عليَّ. يضرب ويضرب، نبضاته متسارعة وكأنّه يريد الهروب. رفعنا أيدينا مع قول «حاضر»، تراجعنا إلى الخلف متّجهين نحو الباب. قام رئيس المهجع بتعصيب العيون بقطع القماش وربط أيادينا خلف ظهورنا، قلت له هامساً: « ادعيلنا... آخ.. شدّيت القماش كتير.. خفّف شوي!». «الله يكون معكن» قال.

قام بإرخاء «الطميشة» قليلاً، ثم استلمنا السجّان. مشينا حفاة على الرصيف وعلى التراب في حرّ الصيف. كان أسفل قدميّ يشتعل ناراً. وُضعنا في سيارة «البيك آب» و قاد السائق. كان برفقتنا في الخلف عنصر مسلح. يبدأ بالضرب على أجسادنا بمؤخرة سلاحه ويصيح بنا: «لنيك أخواتكن يا عرصات. بدكن حرية؟ أخواتكن شراميط ولّا لا؟». لا ننبس ببنت شفة. يضربنا صفعات على الرقبة. «شراميط ولّا لا؟» يكرر. «أي سيدي شراميط» نقول معاً.

يستمر في شتمنا وإهانتنا. كنت أشتمه بيني وبين نفسي. ألعنه في السرّ: «إن كنت رجلاً عن حقّ واجهني وجهاً لوجه» قلتها في خيالي.

بعد عدة دقائق بلغنا المكان المُراد. كانت الصرخات تأتي من كلّ زاوية، صرخات معتقلين آخرين يُحقَّق معهم.

قام أحد العناصر بإنزالنا من السيارة وأمرنا بتتبّع صوته. أُدخلنا غرفة مفروشة بالحصى المبلّلة. أمرنا بالبقاء واقفين عند أحد الجدران وبالحفاظ على الصمت. كانت ظهورنا متجهة نحو فضاء الغرفة. بقينا قرابة نصف ساعة وسط زوبعة من صرخات واستغاثات المعتقلين الآخرين. أحد السجّانين كان يسلّي نفسه برشقنا بالحجارة. أحد زملائه طلب منه التوقف لأنّنا صغار.

دخل المحقق وقال بصوت عال: «مين بدّو يحكي بالأول منشان ابعتو عالمحكمة؟». «أنا سيدي» أقول. «احكي لشوف.. كيف انضمّيتو للتنسيقية واحكيلي عن شغلكن من الألف للياء» سألني. بدأت برواية القصة التي قمنا بتأليفها. وصلت إلى نقطة حاولت فيها تبرئة أحد أصدقائي المشتبه بهم واسمه نورس بعد أن سألني عنه. أوقفني عن الكلام. قام بسحبي إلى الجدار الآخر ثم وجّه لي الضربات بالكرباج. بدأت أسمع صوت صرخاتي. أحسست بأنّني ألد طفلاً، أحسست بأنّ الروح تخرج من جسدي.

«يالله يا إرهابي، تحدّث بصراحة كي لا تُضرب مرة أخرى»- قال المحقق. «صدِّقني... لا علاقة لنورس بالتنسيقيّة وليست له أيّة نشاطات ضد الدولة» قلت. «والله لنيك أختك.... لقد جعلتُ شخصاً إرهابيّاً جاسوساً بأن يعترف بعمالته لإسرائيل، وأنت.. أنت أيها الصغير تتحدّاني. أتظن أنّني لا أستطيع انتزاع معلومات منك؟». نادى على السجّان بصيحات مرعبة: «شايف هاد الصغير؟ بدّي صوت عياطه يوصل لكفرسوسة» أمره.

باشر السجّان بالضرب. كنت أصرخ بكلّ قوتي. الضربات تنهال على أطرافي. كان يحاول إسقاطي على الأرض كي يستمتع بلذّة تعذيبه لي. قاومت. تذكرت لحظتئذ مقولة كرديّة ثوريّة شهيرة: «المقاومة

حياة». حاولت أن أبقى حيّاً. حاولت أن لا أسقط وأن لا أركع لإرادة الظلم. لكنني في النهاية سقطت.

يأمر المحقق السجّان بإجلاسي في موضعي. يفعل ذلك ثم يستمر في الضرب. يقوم المحقق بكسر «بلوكتين» على ركبتيَّ. سمع الله صوت صرخاتي. لم يشفِ المحقق غليله حتى بعد أن قام بتفتيت هذه الحجارة على ركبتيّ. «شو؟ بدّك تعترف ولاه عرصا ولّا لأ؟» يسألني. «إي سيدي... إي» أجيب بسرعة.

بدأت أروي الرواية الحقيقيّة عن انضمامي للتنسيقيّة مع تلفيق للكلام عن انضمام زهير وراكان للتنسيقيّة. وشيتُ بنورس وقلت إنّه أحد أعضاء التنسيقيّة أيضاً. هذا ما كان يريد المحقق سماعه.

انتقل إلى راكان وزهير. تطابقت أقوالنا. حمداً لله لقد كنّا في الغرفة نفسها، لقد سمعوا ما قلته وقالوا كلاماً مطابقاً. بعد تلك الاعترافات رحل المحقق برفقة السجّان. اعتقدت أنّنا انتهينا من الكابوس. بعد دقائق يعود السجّان جالباً بعض الماء كي نشرب. لم أشرب، أخبرته أنّني صائم، أصدقائي كذلك. لم يشرب أحد منّا. رحل السجّان.

دقائق معدودة يأتي المحقق. أستجمع قواي وأقول: «ممكن إحكي شي سيدي؟». «احكي» يقول بغضب. «سيدي أنا بدّي اتشكّرك على كلشي... أنا. أنا ما كنت بعرف الصح من الغلط... قدّيش أهلي ربّوني... قدّ هالتربية اللي أنت عطيتني ياها ما شفت... بتشكّرك كتير لأنك خلّيتني أعرف إنه الشي اللي كنت أعمله كان غلط.. وإنه في مؤامرة على سوريا... شكراً سيدي» أقول بسرعة.

تنفّست بعمق مترقّباً ردّة فعله. بعد لحظات من الصمت صرخ في وجهي وضربني بالكرباج، وقال: «يا أخو الشرموطة... لو كانوا أهلك مربّينك، ما كنت هلّق إرهابي».

لم أنجح في امتصاص وحشيته، لكنني سأحاول مرة أخرى بعد قليل. تذكرت محاولاتي لإخراج بطاقة الذاكرة من جيبي، أول اعتقالي، وكيف نجحت في المرة الثانية.

استمر الضرب قليلاً، ثم أمر المحقّقُ السجّانَ بأخذنا إلى خارج الغرفة. ظننت أنّ التحقيق انتهى وأنّنا ذاهبون إلى مهجعنا. أمرَ السجّان راكان بإمساك خصر أخيه، فيما عليّ أنا الإمساك بخصر راكان. خرجنا من الغرفة، لامست الشمسُ جسدي فشعرت بالضيق.

سرنا أحدنا خلف الآخر، وبعد قليل أمر المحققُ سجّانه: «جِبلي هداك العرصا لغرفة التحقيق... هداك اللي بالأخير» في إشارة إليّ.

شعرت بشلل أصاب جسدي. مسكني السجّان من رقبتي وألقاني على أرضيّة غرفة التحقيق. بدأت أبحث عن بدائل تساعدني في طرد روح المحقّق الشريرة. لم يبقَ أمامي سوى البكاء والرجاء. بدأتُ أتباكى. حاولت إكراه الدموع على الخروج من محجرَي العينين. لم أنجح تماماً لكن رغم ذلك تظاهرت بالبكاء. بدأ الضرب. فكرت في أصدقائي؛ إلى أين أخذوهم؟ استمرّ التعذيب قرابة نصف ساعة دون أيّ سؤال. قرأ المحقق بعد ذلك أسماء خمسة وعشرين شخصاً من حيّنا بحجة أنّهم سياسيون معارضون للنظام. سمعت اسم والدي بينهم.

«سيدي» قلت بسرعة كالبرق. «نعم؟» سأل. «سيدي.. معظم الأسماء كرديّة، لقد أخطأت في لفظ اسم واحد أو ربما يكون الاسم مكتوباً بشكل خاطئ. بإمكاني مساعدتكم في تصحيح ذلك الاسم» أجبت وكنت أقصد اسم والدي، لقد كنت أريد تغييره. «سنستدعيك لتصحيح ذلك الاسم إن لزم الأمر» قال. «حاضر سيدي» قلت.

استمر بقراءة بعض الأسماء وأنا أنكرت معرفتي بأي اسم. استمر

الضرب قليلاً ثم استدعى المحقق راكان وزهير، نفوا معرفتهم بأيّ من الأسماء. أمهلنا خمسة دقائق كي نعترف وإلا فسوف يعلّقنا في الشبح ثم ينهي حياتنا.

بقينا في الغرفة وحدنا. الحقيقة أنّني لم أعرف سوى اسمين من الأسماء التي قرأها، اسم والدي واسم آخر، لكنني لا أملك أيّ فكرة عن عنوان ذلك الشخص. كان راكان يعرف بعضهم ولكن أيضاً دون معرفة العناوين. تركنا المحقق نتشاور قليلاً. ابتكرنا اعترافاً علّه يُرضي المحقق، لقد قلنا له إنّنا نعرف القلّة منهم ولكنهم هربوا من سوريا في الفترة الأخيرة، واستقروا في إقليم كوردستان العراق. جوبه اعترافنا بالرفض جملة وتفصيلاً، حتى اسم «إقليم كوردستان العراق» رُفض، وأجبرنا على أن نقول شمال العراق.

بدأت فصول التعذيب مرة أخرى فاعترافنا لم يكن مثالياً.استدعى المحقق أبو آمد وبدأ يعذّبه أيضاً، ظنّاً منه أنّه يعلم شيئاً عن نشاط السياسيين في الحيّ. بعد ساعات من وجودنا في غرفة التحقيق، أدلى أبو آمد بمعلومات عن نشاطه السياسي، لكنه ادّعى عدم معرفته لأي اسم آخر. استمر المحقق في تعذيبنا بشكل جماعي. لم أعد أحتمل العطش تحت وطأة التعذيب، طلبت بعضاً من المياه. «مو على أساس صايم يا خرى؟ المؤمن الصالح لازم يتحمل العطش» قال المحقق. «سيدي من فضلك» توسلت.

لا أعرف كيف أتى بالماء. كان ماء ساخناً، رائحته أقرب إلى رائحة البول، هكذا شعرت. ربما كان بولاً. لم نكترث، لقد شربنا أنا وأصدقائي.

مع مرور الوقت بدأ بسؤالنا عن وجود المسلّحين في حيّنا. لم نعترف، لأنّ حقيقة الأمر تقول أنه لا وجود للمسلحين أو لمخازن

أسلحة في الحيّ، والمحقق يعرف ذلك. أنكرنا. بعد قسط من التعذيب اعترفنا بوجود سلاح ومسلحين، لكن معظمهم هرب من سوريا، والباقي ماتوا تحت التعذيب بعد الاعتقال. لم يقتنع. تركنا قليلاً وبدأ بتعذيب أبو آمد. لم يعترف أيضاً. استمر التحقيق هكذا. لقد كافأنا المحقق، أنا وأصدقائي فقط دون أبو آمد، بسبب عدم اعترافه على كثير من التهم، باستراحة لقرابة ساعة من الزمن، جلب لنا فيها طعاماً ) سردين، حمص، جبنة(. لقد فُكَّت الأقمشة عن اليدين والعينين وأكلنا. لم يُسمح لنا بالنظر إلى الغرفة، وجوهنا نحو الحائط وظهورنا نحو المحقق والسجّان وفضاء الغرفة. بعد انتهائنا من الطعام سألنا إن كنّا نريد التدخين أم لا. تردّدنا في الأمر أنا وأصدقائي. ثلاثة وأربعون يوماً على تركنا للتدخين. توالت أفكار على رأسي كمثل أن يطفئ المحقق السيجارة في ظهري كما فعلها بالبعض. «أنا سأدخن.... ربما نموت بعد قليل... سأدخن لتكون آخر سيجارة لي في هذه الدنيا» قلت لأصدقائي هامساً بالكرديّة. بعد تردّد قليل قرر الاثنان التدخين معي. دخنَ كلّ شخص منّا سيجارة واحدة. كانت من نوع الحمراء الطويلة التي أكره. دخّنتها بشراهة.

بعد الانتهاء من الطعام والتدخين قام السجّان بتعصيب أعيننا وربط أيادينا من جديد واستأنف التحقيق. عُذّبنا قليلاً بسبب إنكارنا بعض الأمور. انتقل إلى أبو آمد، خلّص والد رفيقي نفسه من التعذيب قليلاً بقوله: «الشخصان اللذان اعترفت وقلت إنّهما شاركاني في تهريب المتفجرات.. أولئك يعرفون المسلحين ومخابئ الأسلحة».

استدعى المحقق الشخصين. لقد جلبوهما إلى الغرفة في وقت قصير، وجرى إخراجنا أنا وأصدقائي إلى الخارج. كنّا جالسين على التراب ونترقب ما ستؤول إليه الأحداث. بعد قليل يأمر المحقق سجّاناً

بجلبي إلى داخل غرفة التحقيق، قال لي المحقق أثناء دخولي غرفة التحقيق: «فراس يدّعي أنّ لغته العربيّة ضعيفة جداً، لذلك يجب عليك مساعدتنا. سيتحدث إليك بالكرديّة وأنت يجب عليك الترجمة».

لقد أصبحت عبداً مأموراً أخدم من كان يعذّبني منذ قليل. بدأ فراس بالانتقام من أبو آمد، وكان الشخص الآخر يدعمه في ذلك. كان يؤلمني جداً ترجمة أقوال لا صحة لها عن والد رفيقي. «سيدي.. سيدي... هل يمكنني قول شيء ما؟» قاطعت فراس. «تفضل» قال بعصبيّة. «سيدي... فراس يكذب والشخص الآخر يدعمه... إنّهما يفتريان على أبو آمد... ربما انتقاماً منه لأنّه اعترف بأسمائهم» قلت بسرعة.

أخرسني المحقق وأمرني بتطبيق الأوامر، الترجمة فقط.

بعد قليل سأل المحقق الشخص الآخر إن كانت ترجمتي لكلام فراس صحيحة أم أنّني أغيّر في الأقوال بما يخدم مصلحة والد صديقي. «إنّه يترجم بشكل صحيح» قال الرجل الآخر.

استمر التحقيق وكانت الترجمة تؤذي مشاعري. كنت أشعر أنّني مشارك في تلك الافتراءات. لقد كانوا يعذّبون أبو آمد بشكل همجيّ.

أدخل المحقق أصدقائي راكان وزهير إلى غرفة التحقيق، أصبحنا كلّنا في غرفة التحقيق، وحُقِّق معنا جميعاً. في نهاية المطاف قال المحقق إنّه يجب علينا الاعتراف بوجود مسلحين ومخازن أسلحة في الحيّ في التحقيق القادم. وصلنا إلى حافة التحقيق إذاً.

انتهى مشوار التحقيق بعد أن تجاوز اثنتي عشرة ساعة، نصف يوم كامل. اعترفنا بأشياء وأنكرنا أخرى. في منتصف الليل أعادتنا السيارة إلى المهجع. تكوّم المعتقلون حولنا. كان البعض يتنهّد حسرة علينا

وعلى أجسادنا المنهكة المزيّنة بالكدمات. الكلّ فوجئ لرؤيتنا من جديد. انصدم عبد الجليل بعودتي، لقد كان يعتقد بأنّه قد جرى إطلاق سراحنا.

بعد حوالي نصف ساعة تيمّمتُ بغبار الجدار. وقف معتقلٌ من أجلي وبدأت أصلّي مستلقياً على الأرض. لم يكن بمقدوري الصلاة واقفاً، ركبتاي كانتا منتفختين وجسدي مملوء بالكدمات.

## اليوم الرابع والأربعون

أُدخل في هذا اليوم ثمانية وثلاثون شخصاً إلى مهجعنا دفعة واحدة. كان بعضهم يرتدي جلابيبَ بيضاء. بدخولهم هذا أصبح الحرّ لا يطاق، ضاق المهجع بنا واشتدّ السأم. لقد انهار نظام النوم. بدأنا نتناوب في النوم، ينام بعضنا والبعض الآخر يقف، وهكذا دواليك.

## اليوم الخامس والأربعون

نجحت في التعرف على سبب اعتقالهم. بثرثرة مخالفة للقواعد حدّثت أحدهم. في خفّة وبحذر بدأنا نثرثر.

جميعهم من مدينة دير الزور في شرق البلاد. كانوا منذ سنين يعملون في السعوديّة. قرروا زيارة أهلهم في دير الزور، قبل أن تشتدّ الحرب في سوريا ويحرموا من رؤيتهم إلى الأبد. دخلوا الأراضي السوريّة من الجنوب، عبر المعبر الأردني السوري. في الطرف السوري فُحصت جوازاتهم وبياناتهم. لم يكن لأيّ شخص منهم سوابق أمنيّة أو سياسيّة، لذلك سمحت لهم إدارة المعبر بالمرور والذهاب إلى دير الزور عن طريق العاصمة دمشق. مرّوا على الكثير من الحواجز، تدقيق وتفتيش في كلّ مرة.

في مركز العاصمة قرروا الاستراحة قليلاً، أحدهم ذهب بحثاً عن مطعم، ثم اختفى في أحد الشوارع الفرعيّة. بعد حوالي نصف ساعة حاصرت عدة سيارات تابعة للمخابرات والشبّيحة الباصين اللذين يسافرون بهما، لقد كانوا بصحبة ذلك الشخص الذي اختفى. كان قد اعتُقل من قبل المخابرات في الشارع الفرعي، وبعد قوله لهم بأنّه بصحبة أعداد غفيرة من السوريين القادمين من السعوديّة أُمِر بأنّ

يأخذهم إلى أصحابه. اعتقلوا الجميع. ضُربوا بشدّة بسبب الاشتباه باندساس سعوديين بينهم، ولأنّهم قد يكونون وهّابيّين.

مع اقتراب فترة الظهر استُدعوا للتحقيق على شكل دفعات. لم يُضربوا. بعد الانتهاء من التحقيقات أُطلق سراحهم جميعاً. فرِحنا جداً ليس للإفراج عنهم، إنّما لحصولنا على أماكننا القديمة ولعودة نظام النوم الذي اعتدنا عليه.

## يوم الأحد

21 **تموز** 2013

أتألم بشدّة، أدعو لله رغم علمي بعدم جدوى هذه الأدعية. أحاول أن أصلّي ركعتين سنّةً لوجه الله، أصلّي واقفاً، أصل إلى مرحلة السجود. أسقط على الأرض. ركبتاي تؤلمانني. صلّيت من جديد وأنا مستلقٍ على الأرض مثلما يفعل أبو آمد، والد صديقي.

وأنا أصلّي سمعت صوت سيارة التحقيق تتوقف. بعد ثوانٍ رُفس على الباب وأُذيعت أسماؤنا، أنا وأبو آمد. أخذتني رعشة، رعشة خوف من القادم.

بعد وصولنا إلى الطرف الآخر قام أحد العناصر بإنزالنا من السيارة. أُمر أبو آمد بالإمساك بخصري وأنا عليّ أن أتبع صوت السجّان حتى نبلغ غرفة التحقيق. كان السجّان يسلّي نفسه بإصدار أصواتٍ تارة من اليمين وتارة من اليسار، واشتدّ به الفرح حين سقطنا على الأرضيّة المرصوفة بالحجارة. لقد مشيت على شيءٍ ما وانزلقت قدمي، ثم سقطت أرضاً ووقع أبو آمد فوقي. صرخت كالحمار. كانت الصيحات خارجة عن سيطرتي، كان صوتي أشبه بشهقات الحمار. صرخ بي السجّان: «إي إي هيييييه... حاج تصرخ يا حمار!».

وقفنا على أقدامنا، بعد أن قام عدة أشخاص برفعنا. وصلنا إلى غرفة التحقيق وكان المحقق والشخصان الآخران، اللذان اعترف أبو آمد عنهما، ينتظروننا هناك.

بدأ التحقيق يأخذ مجراه المعتاد. ظننت أنّني سأكون مترجماً فقط، لكن سرعان ما خاب ظني. سألني المحقق عن كثير من الأمور، لم أعترف في البداية، لكن تهديد المحقق لي بفصل من التعذيب جعل منظومة الشجاعة تنهار.

اعترفت بعدة نقاط مهمة تتعلق بالتنسيقيّة. اعترفت لأنّ جسدي الهزيل والمترهل لم يعد بإمكانه الصمود أمام كلّ هذه الهمجيّة. لقد كان جسدي عبارة عن عظام مكسوّة بالجِلد بسبب سوء التغذية. كنت أتمنى الموت في كلّ لحظة من لحظات العيش في هذا الجحيم. أما في ما يتعلق بأبي آمد، فقد أثار صموده حفيظة المحقق. كان ينكر افتراءات الشخصين الآخرين، فيعذَّب بشتى الوسائل التي لا يمكن لعقل بشري أن يتخيّلها.

لم يعد المحقق يسألني عن المسلحين أو عن مخابئ الأسلحة المزعومة في حيّنا. صار يسأل أبو آمد فيردّ هذا بقول الحق: «لا يوجد لا سلاح ولا مسلحين في الحيّ». يزداد غضب المحقق ويبدأ بالصراخ وكأنّ اضطراباً عقليّاً قد أصابه.

خرج المحقق من الغرفة وعاد بعد قليل وهو يثور غضباً. سكب الماء المغلي على ظهر أبو آمد. صار والد صديقي يبكي ويصرخ بصوت عال. كم تمنّيت لحظتئذٍ أن تخترق رصاصة جسدي. أحسست بأنّ والدي يُضرَب أمامي.

استمر التعذيب لساعات. صحيح أنّني اليوم لم أعذَّب جسديّاً،

لكنني عُذِّبت عذاباً أشدّ. العذاب الجسدي أرحم بكثير من سماعِ صرخات المعذَبين.

في النهاية أعطى أبو آمد أسماءَ عدّة أشخاص بالإكراه، من بينهم من «يحمل السلاح ومن يحفر الخنادق في الحيّ» وأسماء لمعارضين سياسيين من المنتمين لقائمة الخمسة وعشرين اسماً. لم يُسأل عن اسم والدي. حمدت الله على ذلك.

عدنا إلى المهجع. قام الصيدلاني بتعقيم مواضع الحرق وحمايتها ببعض الأقمشة. أعطيت مكاني إلى أبي آمد وجلست خلف الجدار، أمام المغسلة.

بعد عودتنا من التحقيق استُدعي فارس. كان ظهره قد تعافى من تلك الجروح مخلفةً ندبات لن تزول قريباً. عاد فارس بعد أقل من ساعة من الزمن دون أي علامة من علامات التعذيب. قال لي مبتسماً: «خيّرني المحقق ما بين الاعتراف طواعيّة أو الماء المغلي من جديد. اخترت الاعتراف طواعيّة. لم أعد أحتمل الحرق. أنا الآن مسلّح من جبهة النصرة وقتلت شخصاً واحداً فقط».

## يوم الاثنين
## 22 تموز 2013

استُدعي أبو آمد بمفرده هذه المرة، وهذه المرة ذهب ولم يعد.

أخبرنا أحد الذين كانوا قد استُدعوا للتحقيق والذين شهدوا على ما حدث لوالد صديقي بأنّ ضربات السجّان قد انهالت عليه أثناء محاولته إكراه أبي آمد على المكوث في زاوية السيارة. تهاوى جسد المُعذَب وسقط على طعام المعتقلين. اشتدت ضربات الكرباج عليه، لم يعد بمقدور أبو آمد التحرك من مكانه. سكن.

رفض أحد الضباط المسؤولين عنّا في هذا الطرف استلام أبي آمد، وأمر الجنود بإعادته إلى المحقق. وانقطعت أخباره عنّا. لا نعرف، إلى الآن، مصيره إن كان حيّاً أم لا.

اتخذت موضع أبي آمد مكاناً لي.

تمرّ الساعات ويُدخَل أشخاص جدد إلى مهجعنا من بينهم شخصان أعرفهما. أبو أديب وأبو يلماظ، الأول رئيس المجلس المحلي الكردي في الحيّ، والآخر عضو في أحد الأحزاب الكرديّة. كانت يدا أبو يلماظ منتفختين وذلك بسبب التعذيب.

جرى وضعهما بجانبنا، بعد رجائنا رئيس المهجع.

## يوم الأربعاء

استطعت أخيراً التحدث إلى أبو أديب وأبو يلماظ. بدأت ثرثرتنا عن اعتقالهما، وخُتمت عن المعيشة خارج هذا الجحيم.

قامت عدة دوريات بمداهمة حيّنا يوم الأحد، وذلك بعد صلاة التراويح بقليل، لم يكن أبو يلماظ يدرك أنّ غفوته على فراشه في ذلك المساء ستكون الأخيرة، كما لم يكن أبو أديب، صديقه في الكفاح والشيوعي الكردي العتيد، يدرك أنّ هذه هي نشرة الأخبار الأخيرة التي سوف يشاهدها.

تعرّضا لبعض الضرب ولبعض الشتائم قبل أن يصلا إلى مقبرتنا. جرى إيداعهما في سيارة طوال الليل، وبعد سطوع الشمس بساعات أُدخلا إلى غرفة التحقيق. فوجئا بوجود معتقل آخر في الغرفة يدلي بشهادته عن أنّ أبو يلماظ كان قد حفر نفقاً في حيّنا، وقام بتهريب أسلحة إلى داخل الحيّ. لقد كان ذلك الشخص هو أبو آمد، الذي أُجبر على الإدلاء بذلك ضد رفيق دربه في النضال.

«لماذا قلت إنّ أبو يلماظ يقوم بتهريب الأسلحة إلى داخل الحيّ وأنّه قد حفر نفقاً؟» سألت أبو آمد مرة في المهجع. «ألا لعنة الله على لساني هذا... تحت وابل ضربات التعذيب قلت اسمه دون قصد،

وكأنّ القدر قد دفعني إلى ذلك» أجاب وهو يبكي بسبب اعترافه ذلك.

بقي أبو يلماظ وأبو أديب لساعات في غرفة التحقيق في ضيافة ملك الموت. لقد كُسرت عكازة أبو يلماظ على جسده بعد أن ضُرب بها، تلك العكازة التي كانت تصاحبه أثناء المشي. لم يتوقف التعذيب مع رحيل أبو آمد، بل أصبح أكثر شراسة، وذلك بسبب إنكاره للتهم الموجَهة إليه. بعد الانتهاء من التحقيق جُلب الرجلان إلى قبرنا هذا. لقد تعرض أبو يلماظ للنصيب الأكبر من الضرب.

قال أبو أديب لراكان ولزهير بأنّ والدهما كان مهدَّداً بالاعتقال في أيّ لحظة، وذلك بعد أن ضُبطت أوراق حزبيّة في بيتهم يوم اعتقالنا، فهرب مع كلّ أفراد العائلة نحو المدن الكرديّة في الشمال، وقال إنّ والدي قد أخبره في أحد الأيام أنه ـ فيما لو خرجت من الاعتقال حيّاً ـ سيرسلني إلى فرنسا حيث يعيش أخي رودي. رفضت أحلام والدي رفضاً قاطعاً: «لن أخرج من سوريا... في حال خرجت من هنا فسوف أحمل السلاح وآخذ بثأري وثأر جميع المعتقلين».

قال لنا الوافدان الجديدان إنّ الغلاء قد استفحل وإنّ الليرة السوريّة تتهاوى أمام الدولار الأمريكي. كانوا يأتون بأمثلة عن أسعار الخضروات فتعلو علامات الدهشة وجوهنا، بعض الأسعار تضاعفت أكثر من ستّ مرات من سعرها المعروف قبل دخولنا إلى عالم الأموات.

## أيام أُخرى تمرّ..

جرى استدعاؤنا، أنا وأصدقائي الاثنين، إلى التحقيق. لم يُحقَّق معنا في غرفة الاستجواب المعتادة. بدأ المحقق يُغرينا بإطلاق سراحنا يوم الجمعة في حال كنّا صريحين معه في الاعتراف، فهو سيقوم بكتابة إفادتنا اليوم. بدأنا نروي له الحقيقة.

«في بداية الحراك الثوري.... بدأنا..» كنت أقول حين قاطعني. «وقّف....شو قلت؟ كأنّي سمعت كلمة حراك ثوري؟». «لم أكن أقصدها... العفو سيدي» اعتذرت منه. «اضربوه» قال.

ضُربتُ لوهلة من الزمن امتزجت فيها أصوات صرخاتي بصوت السياط تضرب جسدي. ذكرت أثناء اعترافي كذلك «عوائل النازحين»، فجُنّ جنون المحقق وصار يضربني وهو يقول «عوائل الإرهابيين... هدول الخروات إرهابيين مو نازحين...».

قال لي إنّ نورس قد هرب من الحيّ حين كنت أحدّثه عن عمل التنسيقيّة، فرحت للخبر فلاحظ ذلك وقال: «صدّقت يا غبي.. الدبّانة ما بتنفد منّا... يا عنصر جِبلي الموقوف». شعرت بخيبة أمل كبيرة. كنت أدعو الله في كلّ صلاة أن يحفظ نورس، لكن الله أخلف وعده معي.

بعد قليل أتت سيارة التحقيق جالبة نورس معها. حُقّق معه أمامنا. معظم الاتهامات التي وجهت إليه لم تكن لها أيّ صلة قرابة مع الحقيقة. اعترفت بانتمائه إلى تنسيقيّة حيّنا فقط، لكن تُهماً مختلفة وجّهت إليه كالانتماء إلى جبهة النصرة. رفض ذلك بقوة، فأمر المحققُ السجّانَ بتعذيبه ثم رحل. ضربه السجّان عدّة ضربات بعصا، ثم توقف وقال له: «هل تعرف المحقق؟». «نعم أعرفه واسمه أبو يوسف» أجاب نورس. رحل السجّان ثم عاد برفقة المحقق الذي أزاح الطمّيشة عن عيني نورس وقال له: «خيّو... ضربوك الشباب، إزرع هالكم ضربة بدقني».

ما هذا الجنون؟ لماذا يعتذر المحقق من نورس؟ ما الذي يحدث هنا؟ كنت أسأل نفسي.

قام السجّان بفكّ القماش عن يديه. بدأ المحقق حديثاً لطيفاً مع نورس في زاوية بعيدة، ثم عادا إلى حيث نحن. فاجأني نورس باعترافاته مثل الانضمام إلى جبهة النصرة، على الرغم من أنّه يحتسي الخمر كلّ عدّة أيام ولا يصلّي أبداً. حاول نورس أن يبرئ أبو يلماظ من عدة تهم باطلة إلا أنّه لم ينجح في ذلك.

ضغط عليه المحقق كي يعترف بتهم جديدة عن أبو يلماظ مثل نشاطه السياسي، فأخبره نورس القليل عن حراك أبو يلماظ الحزبي في الحيّ. فَرِح المحقق لتلك المعلومات الجديدة. أمر بجلب أبو يلماظ إلى التحقيق.

بينما كان العناصر يجلبون أبو يلماظ، رجا نورس المحقق في أن لا يُشهده ضد أبو يلماظ، فهو على علاقة طيبة معه. قبل المحقق ذلك الرجاء وقام بتوكيلنا، أنا وزهير وراكان، الإدلاء بالشهادة ضد أبو

يلماظ. أبينا فعل ذلك في البداية، لكن غضب المحقق أخضعنا لحكم الأمر الواقع.

بعد أن جُلب أبو يلماظ قمنا أنا وأصدقائي بالاعتراف على أبو يلماظ، إذ قمنا بإعادة قول ما اعترف به نورس قبلاً. ظهر الأمر وكأنّنا نحن من قد أدلى بالمعلومات عن أبو يلماظ.

أنكر أبو يلماظ كلّ تلك الاتهامات. تعرّض لقليل من التعذيب ثم أُعيد إلى المهجع مرة أخرى.

بعد مضي قرابة ساعة من الوقت أمرنا المحقق بالتقدم إلى الأمام قليلاً. أصبحنا الآن تحت أشعة الشمس. قام عسكري بإزاحة الأقمشة عن أعيننا كما فكّ الأقمشة عن أيادينا. كان ذلك بناء على طلب من نورس.

فتحت عينيّ، رمشت عدّة مرات، كان الحرّ شديداً، أغمضت عينيّ مرة أخرى، فتحت.. أغمضت... هكذا حتى تأقلمت على أشعة الشمس. لقد رأيتُ المحقق أخيراً. مرّ أمامي شريط حياتي في هذا المعتقل: الصرخات، التعذيب، أبو آمد، أبو محمد والتهاب الكبد الذي أُصيب به، تفاصيل التحقيق، الجروح، الآهات. كلّ هذا بسبب هذا الوحش.. آخ لو أستطيع أن أقطّع جسده بأسناني.

كانت الجدران مملوءة بصور عائلة الأسد ومرسوم عليها عبارات تمجد هذه العائلة، وكان المحقق يجلس بصحبة رجل آخر أمام طاولة صغيرة عليها إبريق وكؤوس متة. المحقق طويل بعض الشيء حليق الذقن وله صلع خفيف في أمام رأسه يرتدي ثياباً مدنيّة، مثل باقي العناصر والسجّانين، عيونه ملونة، لا كرش له كما كنت أعتقد، عمره في أواسط الخمسينيات.

سمح لنا هذا المحقق بمعانقة نورس والتحدث إليه قليلاً. تعانقنا وتبادلنا التقبيل. فرح نورس لرؤيتنا أحياء، كان خبر موتنا داخل المعتقل منتشراً في الحيّ.

أخبرنا نورس أنّه معتقلٌ منذ عدة أيام، وأنه يقبع في منفردة مظلمة مع أشخاص آخرين. ثرثرنا قليلاً ثم أمر المحقق عنصراً بتعصيب عيوننا وإعادتنا إلى مهاجعنا. هدّدنا المحقق بالإعدام شنقاً إن ذكرنا لأبي يلماظ أنّ نورس هو من أخبرهم عنه، أو أنّ نورس معتقلٌ أصلاً.

كان أبو يلماظ منفعلاً وغاضباً وحين رآنا في المهجع شتمنا وصرخ فينا. بادله راكان بعض الإهانات. أنا بقيت صامتاً. «آه يا أبو يلماظ.. لو تعرف الحقيقة فقط. إن خرجنا يوماً سأخبرك بالحقيقة.. حينذاك ستسامحنا» قلت لنفسي.

بعد عدة أيام حُقق معنا مرة أخرى، ثم نُقل نورس إلى مهجعنا. أخبرني بأنّه تمكّن من الاتصال بأهله وأنّهم يُغرقون المحقق بالمال، لذلك تتم معاملته بطريقة جيدة. كما قال لي بأنّه قد أخبر شخصاً، كان يشاركه المنفردة وعلى وشك أن يُطلق سراحه، أن يتصل بأهلنا ويخبرهم بأنّنا على قيد الحياة.

بعد يومين اعتُقل عبد الحميد، أحد أعضاء التنسيقيّة، من جديد. كان عبد الحميد قد اُعتقل قبل ثلاثة أشهر واختفى في أقبية المخابرات لفترة من الزمن، ثم ظهر في سجن عدرا المركزي. بقي هناك لفترة من الزمن ثم أطلق سراحه بعد دفعه كفالة ماليّة كبيرة.

غادر عبد الحميد السجن وتوجّه إلى البيت، عانق زوجته وأولاده، استحمَّ وأراد أن يشرب الشاي، لكن دوريّة الأمن منعته واعتقلته من جديد بعد ساعة ونصف على خروجه من السجن.

اعترف عبد الحميد في ما بعد بانتمائه إلى جبهة النصرة، على الرغم من إنكاره لتلك التهمة في البداية، لكن التعذيب يجبر هذا الجدار على الاعتراف. بعد التحقيق معه نُقل أيضاً إلى مهجعنا، فأصبحنا سبعة أشخاص من حيّ واحد يتشاركون قبراً واحداً.

استُدعي أبو يلماظ عدة مرات إلى التحقيق لكنه كان في كلّ مرة يرفض التهم الموجهة إليه، كان يجري تعذيبه بهمجيّة.

«إلى متى ستبقى هكذا؟ فكّر في أولادك، هم في انتظار رؤيتك. خذها نصيحة مني واعترف. مرّة قال لي المحقق إن كلمة لا أعرف في قاموسهم تعني أعرف. اعترف أرجوك وامنح عائلتك الفرح برؤيتك من جديد» قلت له. «لا لن أعترف ولن أخبر الأعداء عن أسرار الحزب الذي أنتمي إليه. أما تهم حفر النفق وحيازة أسلحة وإدخالها إلى الحي فهي باطلة، ولا يمكن أن أفكر في الاعتراف بها... سيعذبني المحقق وماذا بعد؟ سأموت شهيداً... أجل شهيداً... ويا مرحباً بالشهادة» قال بعزم.

طلبت من أبو أديب أن يحاول إقناع صديقه بالاعتراف. حاول جاهداً لكن أبو يلماظ بقي مُصرّاً على رأيه.

## اليوم الثامن والخمسون

حلمت بسلحفاة تزحف ببطء على جبل القصر الجمهوري. استيقظت وكان القمل يمصُّ دمي. التقطت قملة قاتمة السواد وحدّثتها كالمجنون. لم أقتل تلك القملة، أدخلتها إلى بنطالي لتخبر الآخرين أنّني لم أعد أريد قتلهم. فليمصّوا دمي.

حدثت عبد الجليل عن الحلم، فقال: ربما هو زحف الثورة نحو النصر، لكنه زحفٌ بطيء.

قبل صلاة الظهر استُدعي «أبو أمجد» إلى التحقيق، وعاد بعد حوالي ثلاث ساعات جثة هامدة.

تكتّلنا حول جسد هذا الدمشقي اللطيف. كان يصرخ ويتأوّه ويتقلّب من الألم فوق هذه الأرض العارية. حملناه إلى الحمام عسى أن نخفف بعض الألم بالماء. صوت صراخه نشر الاكتئاب والحزن في المهجع. بعد قليل طلب مني «أبو أمجد» أن أرتل بعض آيات القرآن. قرأت القرآن وأنا ألمس رأسه. دقيقتان وطلب منّا أن ندخله الحمام مرة أخرى. أخذناه إلى الحمام، أجلسناه، بقينا أنا وعبد الجليل معه.

فجأة توقف عن البكاء. توقفت عيناه الخضراوان عن الحركة. صفعته بلطف صفعتين على خدّه الأيسر.. لم يحرّك ساكناً.

نظرت إلى عبد الجليل. كانت الصدمة مرسومة على وجهه. وضعت يدي على صدر «أبو أمجد» باحثاً عن نبض الحياة، لكن... لا شيء. امتلأت عيناي بالدموع. صرخ عبد الجليل. هرع إليّنا بعض الشبان ونقلوا الجثة إلى وسط المهجع. أخبر رئيس السجن سجّاناً عن موت «أبو أمجد»، فأتى أربعة عناصر وأخذوا جثة هذا الرجل الجميل بدمٍ بارد.

إلى أين أخذوه؟ ما مصير جثته؟ دارت أسئلة مثل هذه في رأسي. بكيت، وبكى آخرون، «أبو أمجد» بكاءً عنيفاً. وقف عبد الجليل في منتصف المهجع وطلب منّا عدم البكاء. أصابني الحزن وبقيت واجماً حتى حلّ الظلام.

## اليوم الستون

كنّا نائمين أنا وراكان حين دُقَّ الباب وفُتح. لجأ الجميع إلى الحركة الروتينيّة بينما كنّا غارقين في النوم. سُكب ماء بارد على أجسادنا. فزعنا. قمنا بالحركة الروتينيّة بسرعة. لم نعاقَب.

لقد رُحِّلت مجموعة جسر الشغور يوم أمس إلى مكان آخر غير هذا الفرع الذي نحن فيه، فتولّى شخص آخر مسؤوليّة المهجع وقام بتشكيل مجموعة الإدارة. لم نطمئن لتلك الزعامة وإدارتها، لأنّ معظمهم معتقلون لخلفيات أخلاقيّة وليست سياسيّة. أتاني عبد الجليل وبدأنا نثرثر حول تلك القضيّة. اتفقنا مع عدّة أشخاص من مجموعة اللاذقيّة على انقلاب ضدهم، لكن حتى نلقى الفرصة المناسبة.

في هذا اليوم استجوب عدة معتقلين من بينهم شخص مُسِنّ من إدلب ذو قدم صناعيّة مُركبة بفخذه الأيمن. لقد كان يؤمن أنّ تلك العاهة هي خلاصه. «هَي الإعاقة تبعي هي خلاصي متل كيف المسيح بيخلّص المسيحيين.. هَيْ الإعاقة هي المسيح تبعي» كان يقول.

في هذا اليوم دُحضت هذه النظريّة. استُدعي للتحقيق، وأُعيد بعد ساعات فاقداً الوعي، محمولاً على «بطانيّة» أدخلها السجّانون إلى منتصف المهجع. قدمه الصناعيّة كانت نائمة على بطنه.

بعد أن أفاق صار يبكي بشدّة، صار يبكي زوجته وأولاده لأنّ لقاءهم صار صعباً للغاية، فقد اعترف، تحت التعذيب، أنّه شارك في مجزرة جسر الشغور.

بعد وجبة الإفطار حاول نورس أن يقنع أبو يلماظ بالاعتراف. رفضَ الاقتراح. حدّثته عن «أبو أمجد» الذي فقدناه. كلّمه أبو أديب. أصررنا عليه. نحن أبناء حيّ واحد، نحن عائلة واحدة.

اقتنع نسبياً فقمنا بوضع خطة للتحقيق: سيتظاهر أبو يلماظ بضعف في اللغة العربيّة، فنترجم له أنا ونورس. قمنا بتأليف قصة له.

كنّا نأمل بعفو رئاسي يشملنا جميعاً مع اقتراب عيد الفطر. وعدنا أبو أديب بجولة في أزقّة دمشق القديمة بعد أن نشرب الشاي في حمّام السوق.

قيل للمطلوبين إلى التحقيق اليوم إنّ عفواً رئاسيّاً يلوح في الأفق.

## وتمضي الأيام..

فُتح باب المهجع في إحدى الليالي الصامتة وقيل لنا: «كلّ عام وأنتم بخير، غداً هو أول أيام العيد... العيديّة بكرا شويّة فلقات» سلّمنا السجّان كيسين صغيرين من السكاكر ثم رحل.

أجهش معظمنا بالبكاء. بكيتُ كالمجنون. أيُّ عيد هذا؟!

قبل عيدين كانت أمي تنتظر خروج أخي رودي من السجن، لم تحتفل وقتذاك، كانت تبكي طوال الوقت. العيد الماضي لم تحتفل أيضاً لأنّ رودي كان قد ترك البلاد، كانت تبكي طوال الوقت. ماذا تفعلين في هذا العيد يا أمي؟

في اليوم التالي جرت معايدة بعض المعتقلين في الليل بعقوبة الفلقة.

ثرثرت مع شاب اسمه زكريا. هو من دير الزور وكان يعمل في لبنان. دخل دمشق من نقطة المصنع الحدوديّة بشكل نظامي قاصداً منطقة قريبة من منطقتنا. جرى اعتقاله بعد خروجه من منزل صديقه أثناء عودته، من قبل حاجز منطقتنا واقتيد إلى هنا. اعترف زكريا، تحت التعذيب، بجرائم قتل وذبح واغتصاب، على الرغم من أنّه كان يعيش في لبنان.

استُدعي أبو يلماظ إلى التحقيق، فقال إنّه بحاجة إلى مترجم فتمّ استدعائي. اعترف بكلّ التهم الموجهة إليه، الحقيقيّة المتعلقة بنشاطه السياسي والباطلة مثل إدخال أسلحة إلى الحيّ وحفر النفق. مَرَةً، خلال التحقيقات مع أبو يلماظ، استدعى المحقّق الضابط المسؤول عن منطقتنا وأعطانا ورقة وقلماً كي ندُلّ الضابط على مكان النفق المفترض. قمت برسم شخبرات تؤدي إلى مكان كهف صغير تختبئ فيه الكلاب عادة على أنّها النفق المزعوم. عشعش الخوف في قلوبنا، أنا وأبو يلماظ، خوفاً من عقوبة دامية، لكن خطتنا نجحت ولم يلحق بنا الأذى يومذاك.

تعرفت على قصة وليد، الذي علّمتُه الصلاة. هو رجل متزوج وله عدة أولاد، ينحدر من مدينة السبينة في ريف دمشق. اعتُقل صديقه قبله. صديق وليد اعترف بتهريب أسلحة للإرهابيين، تحت وطأة التعذيب الهمجي، واعترف، عن طريق الخطأ، بأنّ وليد كان يساعده في ذلك، فاعتُقل وليد في اليوم التالي. أنكر وليد كلّ تلك الاتهامات. جرى تعذيبه بشدّة. اعتُقلت زوجته وأُدخلت إلى غرفة التحقيق كوسيلة للضغط عليه. عُذّبت الزوجة لكن الزوج رفض الاعتراف. جُرّدت الزوجة من ثيابها تمهيداً لاغتصابها أمام زوجها، فاعترف الزوج.

حُقّق مع عدة معتقلين منهم ناصر والألماني والروماني. عُذّب السوريون بشدّة، بينما لم يُعذّب الأجنبيان أبداً. من بين الذين جرى استدعاؤهم كان زكريا، سُكبت المياه الساخنة على أطرافه السفليّة رغم اعترافه بالتهم الموجهة إليه. كان المحقق يريده أن يعترف أيضاً بتهم جديدة كتهريب سلاح كيماوي من تركيا بغرض ضرب المدنيين. استُدعي زكريا مرات كثيرة للتحقيق حتى رضخ في النهاية لمطالب المحقق واعترف.

دخلت خطة انقلابنا على إدارة المهجع حيّز التنفيذ، وأصبحت أنا المسؤول عن الحمّام والتواليت والمغسلة، وكان على راكان أن يساعدني في تلك المهمة. لم يُكتب النجاح لمحاولة الانقلاب تلك وعوقب شخصان منّا.

جرى تصوير مجموعة كبيرة من المعتقلين، من بينهم مجموعة اللاذقية وزكريا. غاب أبو محمد عن التصوير مما طرح الكثير من التساؤلات لدينا. قال أحد السجّانين لاحقاً لمجموعة اللاذقيّة إنّ أبو محمد قد «فطس»، فبكيناه شهيداً تحت التعذيب. بعد فترة من التصوير، جرى نقلهم بالإضافة إلى خمسة عشر معتقلاً آخر، من بينهم سامر دون أخيه الصغير ماجد، إلى فرع الشرطة العسكريّة.

استشهد شخصان في المهجع، أحدهما مصاب بمتلازمة داون لم يمرّ على اعتقاله يوم واحد، وأبٌ كان قد اعتُقل مع ابنه ذي السبعة عشر عاماً. بعد موتهما جرى تحسين أوضاعنا بإضافة نصف ملعقة من مربى المشمش لكلّ شخص في وجبة الإفطار، لأنّ أحد أسباب استشهاد ذلك الرجل كان انخفاض معدل السكر في جسمه، حسب قولهم.

أخبرت عدة أصدقاء بقرار والدي إرسالي إلى فرنسا. ظننت أنّهم يرفضون الأمر ويدعمون قراري في البقاء وحمل السلاح، إلا أنّهم كانوا من المدافعين بشدّة عن قرار والدي. بعد نقاشات عديدة اقتنعت بفكرة والدي واتفقت مع راكان على مغادرة هذه البلاد.

أخبر المحقق معتقلاً خلال التحقيق أنّ الولايات المتحدة الأمريكيّة ستقوم في القريب العاجل بقصف مواقع حيويّة في سوريا، ومكان وجودنا من ضمن هذه المواقع، باعتبار أنّنا معتقلون في مواقع تابعة لقطع عسكريّة. دار الحديث في المهجع عن هذه الضربات وتباينت الآراء، عارض بعضنا وبعضنا الآخر دعم. هزأتُ خلال

النقاشات الحامية من محامٍ كان متفائلاً بشدة، كان يقول: «الأمريكان سوف يحررونا من الظلم ويخرجوننا من المعتقلات».

استُدعينا إلى التحقيق مرة أخرى وكُتبت إفادتنا، مع التشديد على «إدلائنا بإفادتنا بكامل الأهليّة دون ضغط أو إكراه». قام كلّ منّا بالبصم على ثلاث عشرة ورقة في اليوم التالي، سرقت نظرات سريعة من تحت القماش المربوط على عينيّ على تلك الأوراق، واكتشفت أنّ بعضها كان فارغاً تماماً. عمّ الابتهاج مهجعنا. بصم آخرون. عُوقبنا بالاستلقاء على البطن لساعتين دون أيّ حركة. في ذات اليوم ذاته بصم أيضاً أبو يلماظ وأبو أديب ونورس وعبد الحميد.

## الخروج

نودي على أسماء ثلاثة عشر معتقلاً وكانت من بينهم أسماؤنا، أنا وراكان وزهير. أُمرنا بالتأهب ليبدأ نقلنا بعد نصف ساعة. ودّعت الأصدقاء، رفاق الموت، رفاق القبر. تبادلت القبلات مع أبناء حارتي ومع عبد الجليل الذي حفّظني رقم هاتف زوجته لأتصل بها وأطمئنها عن زوجها، كان واثقاً من إطلاق سراحنا وليس نقلنا.

نظرت إلى بقعة الشمس اللعينة، ابتسمت لها، وودّعتها. رُبطت أيادينا خلف ظهورنا وعُصبت عيوننا ودخلنا في الظلام من جديد. فكّرت في حبيبتي.

بعد أن جرى إخراجنا من المهجع قام عناصر الفرع بجمع معتقلين آخرين من مهاجع أخرى. جلسنا على الأرض ننتظر المجهول. سمعنا أحد الضباط يحدّث العناصر قائلاً: «أمّنتكم بالله... عاملوا هؤلاء الموقوفين برفق... إنّهم من أبناء بلدنا».

بُدّلت الأقمشة بأصفاد حديديّة باردة. أُدخلنا إلى شاحنة بعد أن نوديت أسماؤنا الثلاثيّة، وبعد أن ضُربنا بأنبوب بلاستيكي سميك.

كنت أتهاوى من طرف إلى آخر من شدة الضرب، وعندما وصلت إلى درج الشاحنة الحديدي أمرني الشخص، الذي يضرب، بالصعود

ثم بدأ بضرب معتقل آخر. تجمّدت في مكاني. رفعت قدمي محاولاً الصعود، لكنني لم أجد درَجاً، بقيت في مكاني. جُنّ جنون ذلك العنصر بعد أن رآني واقفاً لا أتحرك. انهال عليّ بالضرب حتى أصبحت داخل الشاحنة.

بعد أن أصبح الجميع في الداخل، كان بيننا نساء سمعت أصوات صرخاتهن، أُمرنا بترديد هتافات تمجّد حافظ وبشار الأسد لقرابة ساعة، من لم يكن يهتف بكلّ قوته كان يُضرب بعنف.

بعد فترة من الوقت أدركنا أنّنا أصبحنا بالقرب من فرع الشرطة العسكريّة. كانت أصوات القصف وأزيز الرصاص تدوي في منطقة القابون القريبة. توقفنا وفُتح باب الشاحنة. ضُربنا من جديد. اصطففنا على شكل أرتال في الساحة. ضُرب كلّ واحد منّا ضربة واحدة بعصا ثخينة على الرأس. عندما ارتطمت تلك العصا برأسي رأيت بقعاً بيضاء تطفو في ظلمة الطمّيشة.

بعد وهلة فُكّت الأصفاد والأقمشة عن الأيدي والعيون. لم أرَ نساءً هنا. نوديت أسماؤنا. تسمع اسمك الأول فتقول: حاضر. ثم يقول العنصر: اسم قحبتك؟ فتقول اسم أمك. يقول العنصر: اسم الشرموط؟ فتقول اسم أبيك.

صعدنا الدرج، ثم دخلنا غرفة داخل المبنى مليئة بالمكاتب والرفوف. قال أحد العناصر وهو يلوح بكيس مليء بالهواتف المحمولة وبالمال: «هذه لم تعد لكم... هل فهمتم؟». «نعم سيدي» أجبنا بصوت واحد.

أمرونا بالتوجه إلى ممرّ كان بجانب الغرفة. كان أمام مخرج الغرفة شخص ضخم ذو عضلات ملتفّة يرتدي زيّاً عسكريّاً، يضرب المارّ أمامه ثم يرفعه ويرميه على الأرض. أتى دوري، تأهّبت، وضعت

جسدي الهزيل بين يديه، رفعني، لم يرمني بعيداً بل جعلني أسقط سقوطاً حرّاً على ظهري. صرخت متألماً. هربت مسرعاً إلى الممر. كان هناك ثلاثة عناصر بيد كلّ منهم عصا طويلة وثخينة. ضربني أحدهم على ظهري، هربت لا إراديّاً نحو الآخر، فضربني أيضاً ودفعني نحو الثالث الذي ضربني وأدخلني إلى غرفة أخرى. جُمعنا هناك. بدأ الضرب مرة أخرى. تدافعنا من شدة الضرب. أخرجونا بعد وهلة من الضرب إلى الممر، ضُربنا كلّ حسب ثقل تهمته. خلعنا ثيابنا بحجّة التفتيش. لبسنا ثيابنا. دخلنا غرفة ضيّقة جداً، نسبة إلى أعدادنا، تطفو على بلاطها مياه المجاري، وفي أقصى اليمين كان التواليت، تعلو جدران الغرفة نوافذ صغير مشبكة.

أعطانا أحد العناصر بيضاً مسلوقاً مع أرغفة من الخبز. أكلنا بعنف. لم ننم تلك الليلة بسبب ضيق المساحة وبسبب الخوف من أصوات الاشتباكات القريبة.

في الصباح التالي نودي على خمسة أسماء، بينهم أنا وأصدقائي. نُقلنا إلى غرفة نظيفة، نوافذها مطلّة على شجرة خضراء. بقينا هناك يومين. في ظهيرة اليوم الثالث نُقلنا مكبّلي الأيادي مع معتقلين آخرين إلى المحكمة العسكريّة. بقينا هناك لساعات. تأكّدوا أنّنا لسنا مطلوبين لفروع أمن أخرى، ثم أعادونا إلى مبنى الشرطة العسكريّة مرة أخرى. دخلنا إلى غرفة ضيقة جداً، أشدّ قرفاً من الغرفة الأولى التي دخلناها هنا. كانت الصراصير السوداء تزحف على الجدران والأرض مبلّلة بمياه المجاري المزيّنة بالبراز. اشتقت لمهجعنا ولأصدقائي.

نُقلنا بعد ساعات إلى مهجع تحت الأرض. تكدّسنا بعضنا فوق البعض الآخر. كأنّه مشهد هارب من جحيم دانتي. لم أنم.

في الصباح التالي نُوديت أسماؤنا. وقفنا قليلاً أمام المركز حتى

صُفدت أيادينا مثنى وثلاث. فجأة سقطت قذيفة هاون في الساحة المقابلة لمكان وقوفنا، لحسن الحظ لم يصَب أحدٌ منّا بأيّ جرح.

وُزِّع المعتقلون على الباصات كلّ حسب تهمته.

سار الباص.

سار الباص ذو النوافذ المسيّجة. رأيت قرص الشمس المعلّق في السماء. رأيت الكتل البشريّة في شوارع دمشق... الحياة طبيعيّة!!

بعد فترة من الزمن توقفنا. بدأ إنزالنا من الباص. سرنا لدقيقتين حفاة. كنت أتلفّت يميناً ويساراً. أراقب الناس وهم يمشون كأنّهم كائنات غريبة أراها للمرة الأولى. كنت كغارق في حلم.

دخلنا إلى مكتب ما ومن ثم عدنا إلى الباص. أُخذنا إلى القصر العدلي في وسط المدينة. لم تقبل إدارة سجن القصر العدلي استلامنا، لأنّ زهير لا يحمل هوية شخصيّة. خاطب أحدهم عنصراً من الشرطة العسكريّة: «أعد هؤلاء الثلاثة إلى سجن الشرطة العسكريّة. الموقوف زهير يحتاج إلى أوراق من الشرطة العسكريّة. وبما أنّ التهمة مشتركة فيجب إعادتهم جميعاً. إجراءاتهم ستدوم نحو يومين أو ثلاثة. بعدذلك بإمكانك جلبهم إلى هنا».

أصابني اليأس، ثلاثة أيام أخرى في الجحيم. خيّل لي أنّ برّ الأمان قريب، لكن يبدو أن موج البحر ما زال هائجاً. قررت البكاء والترجي فعسى ينفع الأمر. فعلت ذلك وفعل راكان وزهير الأمر نفسه. كنّا نُكره قطرات الدمع على الخروج من الحجرتين. بعد أخذ ورد جرى قبولنا وفُكّت قيودنا. أُدخلنا إلى سجن الإيداع.

جلسنا على الأرض وطلبنا سيجارة من أحد الأشخاص، تقاسمناها نحن الثلاثة.

سمعت صوت والدي يناديني، لكنني قلت لنفسي: «كول هوا... إنت عم تشبّه صوت الناس بصوت أبوك». ضربني راكان بكوعه. أقسم بالله إنّه قد لمح والدي من بعيد. وقفت. تمسّكت بالقضبان الحديديّة وصرت أنادي: «بابا... بابا... أنا هون... باباااا». تبع صوتي ونظر إلينا. كنت أمام عينيه لكنّه لم يعرفني: «محمد صديق... ابني... وينك؟» صرت أبكي. «بابا.. أنا هون.. قدّامك!» نظر إليّ لثوان معدودة. لم يعرفني. شعري طويل، ذقني طويلة، جسدي نحيل. سالت دمعة على خدّه. لم يستطع ضمّي بسبب القضبان الحديديّة التي تفصلنا، حاول تقبيلي، حاولت تقبيله، لم نستطع. قبّلني على شفاهي.

ارتاح بعد أن رأى زهير وراكان وطمأنهم عن عائلتهم. طلبت من والدي جلب سندويشات فلافل أو بطاطا مع كولا. أجهزنا على الطعام بلمح البصر.

استُدعينا إلى المحكمة. قُيّدنا بأصفاد جماعيّة محكمة ومشينا. صعدنا الدرج. رأيت والدي برفقة عدد من أصدقاء أخي رودي. رأيت أخي عثمان. عرفته لكنه لم يعرفني. كان والدي يشير إلينا، لم يعرفني إلى أن ابتسمت في وجهه.

دخلنا إلى قاعة المحكمة. مثلْنا أمام القاضي رفقة عدد من المحامين. بعد وقت قصير أمر القاضي بإطلاق سراحنا لعدّة أسباب منها تدهور الحالة الصحيّة، على أن تجري محاكمتنا في العاشر من تشرين الأول من عام 2013.

أخيراً رسا قاربنا. بارك لنا جميع الموجودين. قبّلتهم وقبّلوني. أخبرني أخي عثمان بنجاحي إلى صفي المدرسي الأخير «البكالوريا». اتصلت بأمي. بكيت. كانت تحاول أن تغني لي على الهاتف مغالبة بكاءها.

ودعت زهير وراكان اللذين رحلا مع أحد أقربائهم إلى منطقة أخرى قبل أن يسافروا إلى حيث عائلتهم تقيم.

اشترى لي والدي ثياباً جديدة لبستُها بدل تلك المهترئة. ذهبت إلى صالون حلاقة. حُلق شعري وأصبح خفيفاً حسب طلب أبي، وحُلقت ذقني. تجولنا قليلاً في شوارع دمشق حسب رغبتي. في سيارة الأجرة التي أقلّتنا إلى المنزل أخبرني أخي بضرب النظام للغوطة الشرقية بالأسلحة الكيماويّة. لم يطفُ أيّ نوع من المشاعر على وجهي، لكنني تذكرت زكريا، لقد اعترف بتهريب السلاح الكيماوي وهو في السجن.

أنظر إلى الأرصفة والشوارع وأراقب حركة المرور ودخان السيارات. الناس.. الأشجار.. أتذكّر رفاق القبر. أتذكر «أبو أمجد» الذي مات بين يديّ. أتذكر أبو محمد الذي مات بالتهاب الكبد. لا أسمع صوت أبي وأخي. أسمع صوت صرخات عالية.

وصلنا إلى المنزل. قبّلتني أمي عشرات القبلات. بادلتها القبلات. أدخلتني إلى الحمّام مباشرة. استحممت بالماء الساخن والشامبو والصابون والليف. نقضت العهد مع القمل وقتلت ما تيسّر لي منه. بعد حمّام فردوسيّ اتصلت بي ياسمين. حدّثتها بلهفة. أتت إلى منزلنا، خفت من أن أحضنها فهذا مخالف للشرع.

طلبتُ من أمي علبة حلاوة كاملة. التهمت الحلاوة التهاماً. أفرغت العلبة كلّها.

اتصلت بزوجة عبد الجليل التي فوجئت بوجود زوجها لدى النظام. كانت تعتقد بأنّه مخطوف من قبل «الإرهابيين».

مع مرور الوقت بدأ الناس يتوافدون إلى بيتنا مباركين إطلاق سراحي. رفضت تسميتي بالبطل. لم أكن بطلاً. أخبرت عوائل أبناء

حارتي المعتقلين بوجودهم معنا في السجن. في صبيحة اليوم التالي حلقت رأسي بنفسي على درجة الصفر، بعدما رأت أمي القمل على فراشي. لم أبقَ في البيت سوى يومين. انتقلت إلى بيت أختي «أمي الثانية» التي كانت قد تركته فارغاً، بعد أن سافرت إلى إحدى المدن الكرديّة في الشمال، كانت قد نقلت بيتها إلى هناك قبل خروجي من القبر بأيام. بقيتُ هناك لأربعة أيام بعيداً عن ضجيج الناس، وحيداً مع عزلتي. كم تمنّيت العودة إلى السجن! بدأت اعتقد أنّ السجن هو الحريّة.

في دمشق عولجت من بعض الأمراض التي أصابتني في المعتقل. بعد أسبوع سافرت إلى الشمال وبقيت هناك شهراً. خطب أخي فتاة أحلامه وحبّه الأول. حاولت في حفلة زفافه إظهار الفرح، نجحت في ذلك.

حاولت التواصل مع راكان كي يسافر معنا، لكنني لم أنجح بسبب شبكة الاتصالات السيئة هناك. غادرت إلى لبنان دونه ودون ياسمين.

دخلنا، أنا وعائلتي، لبنان من نقطة المصنع. التفتُّ إلى الخلف حين كان يجري التدقيق على هوياتنا، رأيت سماء سوريا للمرة الأخيرة. أحسست برغبة في البكاء. تركت الوطن ورائي. بعد اليوم كلّ الأمكنة ستضيق بي.

وصلنا إلى مركز إدارة المعبر من الجانب اللبناني، فكان في استقبالنا جنود مدجّجون بأسلحة متطورة. كانت بذلاتهم العسكريّة أنيقة وكانت صرخاتهم الشرسة في كلّ مكان، عاملونا بحقد، وكأنّنا نحن من احتللنا لبنان.

بعد ساعات وخيمة عبرنا الجانب اللبناني بسلام إلى أن وصلنا إلى بيروت. أقمنا هناك أياماً إلى أن حصلنا على أوراق سفر فرنسيّة.

أقلعت طائرتنا في اليوم التالي من مطار رفيق حريري الدولي وهبطت بعد ساعات في باريس. استقبلنا أخي رودي بحفاوة، ضمّنا بحب. لم نبقَ طويلاً في باريس، اتجهنا إلى ألمانيا، بعد أن نُصحنا بتقديم طلب اللجوء هناك.

طوال الطريق لم أقل شيئاً، كنت أراقب الأراضي الزراعيّة وأتأمل وجوه المدن الأوربيّة وملامح أبنائها.

بعد أشهر في ألمانيا حصلنا على حقّ اللجوء.

بعد وصولي إلى أوربا رأيت الكثير من المعتقلين، من بينهم زكريا، وهم يعترفون بالتُّهم الباطلة على قنوات النظام التلفزيونيّة.

كنت منزعجاً جداً من وجودي في دولة غريبة، تصطدم بيئتهم وثقافتهم بفكري المتطرّف. لم أعد أخرج من المنزل. بقيت في السرير لأيام طويلة.

صرتُ أصوم أيام الاثنين والخميس من كلّ أسبوع. أستحم في اليوم ثلاث مرات. أصلّي «السنّة» إلى جانب «الفرض». لا أنظر إلى الفتيات.

أحياناً كنت أحاول التحدث إلى ياسمين، لكنها لم تعطني الفرصة المناسبة، لقد تركتني قبل أن أغادر سوريا، كانت تتهمني بعدم الصدق في حبي لها. زاد ذلك من عزلتي، من بؤسي، من يأسي، من تطرفي وكرهي للحياة وللبشر.

مرّةً قررت الخروج، فرأيت أشخاصاً في الشارع يحتفلون، يشربون الخمر ويرقصون. كانوا فرحين بحقّ. شعرت برغبة عارمة في مشاركتهم الرقص والشرب. خفت. لم أرقص ولم أشرب. عدت أدراجي إلى المنزل حزيناً.

عدت إلى عزلتي. مع مرور الوقت بدأت أشاهد فيديوهات جهاديّة على اليوتيوب، أصبحت أتابعها دوماً. بدأت أتشاجر مع أهلي من أجل أن أعود إلى سوريا لأقاتل مع الجهاديين. كانوا يواجهون تطرفي بآيات من القرآن وأحاديث نبويّة. بدؤوا بمراقبة تحركاتي ومنعي من ممارسة بعض الشعائر الدينيّة. بدأت أكرههم مع مرور الوقت بسبب معارضتهم للدولة الدينيّة وكراهيتهم للجهاديين الذين يدعون إلى الخلافة. تجنّبت الاختلاط معهم قدر الإمكان.

حاولت التواصل مع الجهاديين لأنضمّ إليّهم، إلا أنّ كلّ محاولاتي باءت بالفشل. وبعد أن أصبح الانضمام إلى حركة جهاديّة مستحيلاً فكّرت بالانتحار. حاولت مرات عديدة إنقاذ نفسي من الإحباط واليأس والعزلة والتطرف، لكنني لم أنجح.

بعد أشهر دخلتُ إلى المدرسة وزرت أطباءً نفسيّين، لكنني لم أشعر بأيّ تغيير. تراجع أدائي في المدرسة أو بالأحرى كان يتجه من السيّئ إلى الأسوأ.

علمتُ أنّ «أبو يلماظ» رحل عنّا في المستشفى بعد أن أصيب بالسرطان، غادرنا دون أن أشرح له سوء التفاهم الذي حصل بيننا.

نقطة التحول في حياتي كانت في التعرّف على دانييل، الألماني الأشقر، وإلياس، الألماني ذي الأصل التركماني. رفاقي الجدد الذين ساعدوني في التعرف على المجتمع الجديد، وفي تجميع شظايا روحي المبعثرة. عدت مرحاً كما كنت، بدأت أحبّ الحياة وأفكر بالمستقبل، رغم زيارة شبح الزنزانة والتعذيب لي أحياناً أثناء نومي.

وكانت الكتابة...

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»:

**بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:**

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.
7. مزهرية من مجزرة، مصطفى تاج الدين الموسى.
8. غرفة تطل على الحرب، إيديت بوفييه.
9. إذا قفزت عن السياج ولم أصب بأذى، عمرو كيلاني.
10. أرض مائدة، ضحى حسن.
11. لم تنته الحكاية بعد، رؤى الإبراهيمي.
12. إكثار القليل، دارا عبد الله.

**بدعم من المنظمة الأورو ـ متوسطية لدعم المدافعين عن حقوق الإنسان:**

13. رسائل من سورية، وجدان ناصيف.
14. يوميات وقصائد، علي جازو.
15. انسَ دمشق، عمر يوسف سليمان.

**بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:**

16. ما تبقّى من حياة، سهى زكريا.
17. لا تغمض عينيك!، د. حسّان عبّاس.
18. الدرب مسامير، منار سهران شلهوب.
19. قنديل أم هاشم المفقود، عدي الزعبي.
20. الموت كما لو كان خردة، وداد نبي.
21. مذ لم أمت، رامي العاشق.
22. كأنها قيامة، محمد صدّيق عثمان.